أحمد شوقي
الشاعر الإنسان

أحمد عبد المجيد





أحمد شوقي

الشاعر الإنسان

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

شوقى وعالمه الشعرى

المنظر الأول :

صالة محاضرات فى إحدى كليات الآداب بالجامعة ، الصالة ممتلئة بالوافدين ، وهم فى شوق لوصول المحاضر ، الذى عودهم الطريف فى كل ما يعالجه من مواضيع ، ويحاضر فيه من دراسات .

زميل لزميله : إن اختيار موضوع المحاضرة ، وتركيزه على الناحية الإنسانية فى شعر شوقى ، يدل على اتساع فى التفكير ، وعلى نظرة شمولية فى الدراسة ، وعلى طرق سبيل فيها جدة وطرافة وتنوع ، فإن أقلاماً كثيرة تناولت شوقى فى سيرته الذاتية ، كما تناولت تقييم شعره وفقاً للمقاييس المعهودة ، أما أن يتناول جانب إنسانيته ، فهذه هى الناحية التى ينشط فيها عامل الجذب وشد الانتباه .

الزميل المستمع : فى الواقع ، هذا الأمر جدير بالملاحظة والمتابعة ، وإنك ترى فى إقبال الوافدين ، الدليل على صحة ما عرضت ، وصدق ما أحسست ، وأنا من جانبى أضيف إلى ما قلته ، أن جوانب شاعر كشوقى تحمل

المتخصصين ، على مثل هذه الدراسة ، ومهما تعددت الدراسات فلكل باحث نظرة جديدة .. وهذا ما حدث بالنسبة لأبى العلاء المعرى ، أو المتنبى ، أو برنارد شو ، أو جان جاك روسو ، عندما تنوعت أساليب دراسة كل شخصية من هذه الشخصيات ، على يد كتاب ونقاد ، مختلفى الاتجاهات والأساليب .

ذلك أن لكل فنان أو رسام ، من موقعه الذى يرسم منه ، أسلوبه الخاص ، وما يمده به من خيال ومحتوى ومضمون ، لا يراه غيره . كالموديل الذى تمثله أنثى ، يتحلق الفنانون حولها ، حيث يصورها كل منهم بما توحى له به روحها التى تسكن جسدها ، ونظرته هو ، إلى ما بداخلها ، لا إلى ما هو ظاهر من بدنها ، فإن عالم البصر ، يحجب الكثير من عالم البصيرة .

وليس للفن نهاية أو كلمة أخيرة ، فالإنسان منذ بدأ يتدرج فى رقيه ، ازداد الفن معه فى إضافات مستمرة على مسيرة الحياة . وللشاعر الكبير مفاتيح عديدة لشخصيته ، تستطيع أن تدلف عن طريقها إلى دخيلة نفس الشاعر وما يطوى عليه الجوانح . وسنرى مما سوف نسمعه من المحاضر . إيضاحًا لما نحن فيه من جدل .

الزميل الأول : أرى آلات التصوير أخذت تصور الصالة والوافدين ، للنشر عن المحاضرة بأوضح وسائل النشر ، وكنت أتمنى أن يتم تسجيلها تليفزيونيا ، لتعم الفائدة للمشاهدين كما ستتم بالنسبة للمستمعين .

الزميل الثانى : ها هى ذى آلات وكاميرات التليفزيون قد وصلت ، وكأنك كنت تقرأ صفحة الغيب .

* * *

يدخل المحاضر ، ويحيى جمهور الوافدين ، فى تواضع ، ويأخذ مقعده ، أمام القائم الذى يحمل مصباحاً ، وعلى سطحه وضع المحاضر أوراقه التى أخذ فى إلقاء نظرة عجلى للاطمئنان إلى ترتيب فصولها التى دونها .

سكوت تام يعقبه صوت المحاضر :

سيداتى ، آنساتى ، سادتى : حديثنا اليوم عن أمير الشعراء أحمد شوقى الشاعر الإنسان ، ولست أمانع فى أن يسألنى من يريد عما يشاء ، وسوف أجيب عن سؤاله بما يوضح ويكشف له عما يستعلم إن استطعت إلى ذلك سبيلا ، على أن يكون السؤال فى إطار موضوع المحاضرة التى سوف يتشعب فيها مجال القول ، فى نواح عديدة ، أرجو أن تحقق رغباتكم .

وقد يقول قائل ، إنه ما دام شوقى شاعرًا ، فهو وليد تجارب عديدة وأطوار وصور وأحداث ومواقف ، من المفروض أن يكون بينها ، موقفه الإنسانى حيال ما ينظم .

ولكن الرد على ذلك ، يتصل بما يحمله الشاعر بين جنبيه من حساسية مفرطة ، وعاطفة مشبوبة ، هى التى تكون بارزة فيما نحن فيه من حديث ، فإن الشاعر يمتاز عن زميله بفارق الحساسية والمشاعر والصدق ، والعاطفة المتقدة ، وبهذا يتفاوتون فى الموازين .

والشعر ينبع من الشعور ، وكل ما يثير العاطفة ويلعب بأوتار القلوب شعر ، ولكن درجات الحساسية والتأثر العاطفى ، عند تناولهم الإنسانية ، تتباين فيما يعالجون من أهداف عظام فى نظمهم لما يحسون ويطرحونه على الناس فى هذا المجال .

وإن تفانى الفنان فى فنه واندماجه فيه ، حمل فان جوخ الرسام الهولندى الأشهر على أن يقول إنه عندما يرسم زهرة ، يصبح هو نفسه زهرة ، أى يتجسدها ويصبح هو الزهرة ، وهذا من فرط اندماجه فيما بين يديه وأمام ناظريه من مادة يريد أن يخضعها لفنه أولا ولمشاعره وأحاسيسه ثانياً ، وهو فى ذلك أشبه ما يكون بالممثل الذى يندمج فى دوره حتى يصبح هو صاحب الشخصية التى يقوم بتمثيلها ، وليس هو الممثل المعروف بين زملائه باسمه أو شخصه أو صفاته .

* * *

كانت هذه الظاهرة تتمشى فى شعر شوقى وتنساب حتى تكاد تعم كل ما نظم فى أى باب وفى أى زمان وفى أى مكان . فهو إنسان يفعم بالإنسانية ، إذا خاطب حجرًا فإنه يخاطبه كما لو كان إنساناً تجرى فى عروقه الدماء ، وكان شوقى قد عرف بمحبته للحياة محبة عارمة ، تحمله على أن يحيط نفسه بكل ما هو حى ، حتى لو كان جماداً أو نباتاً أو حجرًا :

اسمعه وهو يخاطب أبا الهول .

تحرك أبا الهول هذا الزمان تحرك ما فيه حتى الحجر

أبا الهول لو لم تكن آية لكان وفاؤك إحدى العبر

* * *

أو اسمعه وهو ينظر إلى بقايا معبد (أنس الوجود) ، (فيله) من أحجار تترنح وهى توشك أن تنقض .

قف بهذى القصور فى اليم غرقى ممسكًا بعضها من الذعر بعضا

كعذارى أخفين فى الماء بضًا   سابحات به وأبدين بضا

لم ينس وهو يخاطب الأحجار ، حبه للجمال ونظرته إلى بياض السيقان التى اختفى منها ما اختفى ، وكشفت عن أجزاء منها لتغرى بها الناظرين .

وشوقى شاعر موكل بالجمال ، يعرضه بعد أن يتم صياغته كأتقن ما تكون عليه صياغة الصائغ الفنان . ويطرح ما صنع أمام الأعين ، ويدعو كل البشر للتنعم بهذا الجمال والحسن الأخاذ ، أينما وجد حسن ، وحيثما أطل جمال من صنع الله فى هذا الوجود .

لا والقوام الذى والأعين اللاتى   ما خنتُ رب القنا والمشرفيات
ولا سلوت ولم أهم ولا خطرت   بالبال سلواك فى ماض ولا آت
وخاتم الملك للحاجات مطلب   وثغرك المتمنَّى كل حاجاتى

أو اسمعه يقول :

ردت الروح على المضنى معك   أحسن الأيام يوم أرجعك
مر من بعدك ما روعنى   أترى يا حلو بعدى ردعك !
كم شكوت البين بالليل إلى   مطلع الفجر عسى أن يطلعك
موقعى عندك لا أعلمه   آه لو تعلم عندى موقعك

* * *

وشعر شوقى العاطفى ، ينم عن نفس عفيفة ، وقلب يكتوى ويسلم أمره للمقادير ، وهذه صفات لا تتردد ولا ينبض بها إلا قلب من غلبت إنسانيته على عاطفته الحسية .

وهو فى عشقه وحبه ، إنسان وفىٌّ يحب ويعتز بمن أحب فهو يقول :

بينى وبينك فى الهوى سبب سيجمعنا متينه
الروح ملك يمينه تفديه ما ملكت يمينه

وهو صاحب مبدأ فى الحب ، إنسانى النزعة ، فهو على يقين من أنه ما دامت قد قامت علاقة حب بين إنسان وإنسان ، فإن هناك وراء الغيب من يرعاها ويحفظها طالما كانت عفيفة طاهرة .

ثم يشكو ما فعلت به العيون شكوى إنسانية تسأل الرحمة :

أدارى العيون الفاترات السواجيا وأشكو إليها كيد إنسانها بيا
قتلن ومنّين القتيل بألسن من السحر يبدلن المنايا أمانيا
وكلمن بالألحاظ مرضى كليلة فكانت صحاحاً فى القلوب مواضيا

* * *

وشوقى من أبرز الشعراء فى تعمقه الأشياء ، حتى يصل إلى أغوارها ، ثم يتحدث بما أحس ، وما انتهى إليه من شعور ، حديث الملهم من ناحية ، وحديث صاحب التجربة من ناحية أخرى .

والفن فى رأيى ، إلى جانب تعميقه للحياة ، فإنه محاولة لإعادة تشكيل المرئيات على نسق ينبع من داخلنا ، ومن ذات مشاعرنا ومما تتركه فينا من أحاسيس ومشاعر .

وقد سئل فيلسوف عن خير تعريف للفن ، فأجاب :

الفن هو امتزاج الإنسان بالحقيقة والطبيعة . والحقيقة مصدر الشعور

الصادق ، والطبيعة ملهمة للفنان بما تعرضه من مفاتنها عليه ، وهى أدرى بما تثيره تلك المفاتن فى النواظر والمشاعر ، فتكشف عما يوقظ القلب العطوف الشفيف ، وما يزال حتى يختار خيرها ويستأثر بما أثار لبّه وعاطفته ، ويعود للطبيعة التى ألهمته كل هذا البهاء ، ليرد فضلها ويدها عنده ، بأن يسجل افتتانه بآلته التى اختصه الله بها ، شعرًا أو نثراً ، أو نقشاً أو نحتاً ، أو لحناً أو غناء .

وكان شوقى يمتزج بالطبيعة فى شعره امتزاجاً يتحول فيه إلى جزء منها لا انفصام منه عنها فهى فى نظره الإنسانى شىء حى ، والحى يألف الحى .

استمع إليه فى هذا النظم :

هل تيم البان فؤاد الحمام   فناح فاستبكى جفون الغمام
أم شفه ما شفنى فانثنى   مبلبل البال شريد المنام
يهزه الأيك إلى إلفه   هز الفراش المدنف المستهام
وتوقد الذكرى بأحشائه   جمرًا من الشوق حثيث الضرام
كذلك العاشق عند الدجى   يا للهوى مما يثير الظلام !

* * *

وهو حتى فى حنينه إلى مصر ، عندما كان فى منفاه بالأندلس ، كنت تلمس فى ذلك الحنين ، صرخة الملهوف الذى يحن لوطن هو فى قرارة نفسه فوق كل خلد ، بل هو حبيبه الذى فارقه على غير إرادته .

أحرام على بلابله الدوح   حلال للطير من كل جنس !
وطنى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

ثم يطول تحنانه إلى مصر مع الأمل فى العودة مهما طال الأمد ، فيسرى عن نفسه بقوله :

بنّا فلم نخل من روح يراوحنا من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا

ولعلنا نحسن إن وقفنا هنا وقفة ، نستبين من هذا النظم ، إحساسه بالإنسانية وبكلفه بالحياة ، وبإيمانه فى الخالق القادر ، فهو يقارن وهو فى منفاه ، بين نفسه ، وبين موسى عندما كان طفلاً يخشى عليه من بطش السلطان ، وألهمت أمه أن تلقيه فى اليم فى صندوق راحت كفالة الله ترعاه لتعيده إلى أمه لتقر عينها بعودته ، وهذا ما أحسه من أن مصر وهى تبعده ، إنما كانت تفعل ذلك لفترة وظروف تقتضى ذلك ، حتى إذا مرت المحنة عاد سالماً كما عاد موسى إلى أمه سالماً معافى ، حتى أن الخالى من الهم ، أصبح يوصف فؤاده بأنه أفرغ من فؤاد أم موسى .

وكأنما كان حافظ إبراهيم شاعر النيل يحس بغربة شوق فى المنفى وبحنينه الذى يملأ قلبه الذى ما نبض نبضة إلا فى حب مصر ، كما كان يحس بما كان يملأ مشاعره وجوانحه بأمل العودة إلى ذلك الوطن العزيز الذى أحبه كما يحب العاشق ويتعذب فى وجده ويشقى فى الابتعاد عمن أحب . فشوقى دائماً ما تشعر فى ثنايا شعره بإنسانيته بحيث تحس بأنه يبعث الحياة فى كل ما يحيط به من طير أو نبات أو جماد ، فما بالك بوطن جمع كل ذلك وزاد عليه الحنين وحبه الجارف اللهيف .

فلما عاد من المنفى وأقيم لشوقى حفل فى دار الأوبرا ، رأى شعراء العرب أن يبايعوه فيه بإمارة الشعر وكان ذلك فى ١٩٢٧/٤/٢٩ ، حيث ألقى حافظ إبراهيم قصيدة عصماء ، سبقه فى الإنشاد فى ذلك الحفل ، الضيوف من كبار شعراء العرب ، حتى إذا ما انتهوا من إنشادهم قام ليلقى قصيدته التى جاء فيها :

وعدت فقرت عين مصر وأصبحت   رياض القوافى فى ربيع موشع
حمى يتهادى النيل تحت ظلاله   تهادى خود فى رداء مجذع
لقد كنت ترجو منه بالأمس قطرة   فدونكه فابرد غليلك وانقع
أمير القوافى قد أتيت مبايعاً   وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

* * *

وعندما انتهى حافظ من إلقاء قصيدته ، وقف الكاتب الكبير والصحفى الأديب الأستاذ المرحوم فكرى أباظة ، ليلقى قصيدة شوقى نيابة عنه وكان هذا دأبه وسيأتى تفصيله فى حينه . والقصيدة كما سيتبين من أبياتها مثال للتواضع الذى لا يلحق إلا بكل عظيم ، وهو يرجع كل ما أفاءه الله عليه من نعمة النبوغ إلى مشيئة الله لا إلى جهده وتفرده .

ما الرحيق الذى يذوقون من كر   مى وإن عشت طائفاً بدنانه
وهبونى الحمام لذة سجع   أين فضل الحمام فى تحنانه
وترفق فى اللهاة ما للمغنى   من يد فى صفائه وليانه

* * *

وما دام قد جرى الحديث بنا حتى تعلق بحافظ إبراهيم شاعر النيل ، فإنه

يتعين علينا أن نذكر موقفاً له مع شوقى ينم عن شعور إنسانى جليل كريم ، فياض بالوفاء وأصدق العرفان .

فقد بعث أحمد شوقى من منفاه فى الأندلس إلى حافظ إبراهيم بهذه الأبيات :

يا ساكنى مصر إنا لا نزال على ... عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا
هلا بعثتم لنا من ماء نهركمو ... شيئاً نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل آسنة ... ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

وقد رد عليه حافظ إبراهيم بهذه الأبيات الصادقة النبيلة :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله ... صاد ويسقى رُبا مصر ويسقينا
والله ما طاب للأصحاب مورده ... ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وإن فارقت شاطئه ... وقد نأينا وإن كنا مقيمينا

أحد المستمعين :

هل فى استطاعة أستاذنا الدكتور المحاضر – إذا سمح الوقت والمقام – أن نعقد مقارنة بين شوقى الإنسان من خلال شعره ، وحافظ إبراهيم شاعر النيل الإنسان فى مواقف تختلف عن مواقف شوقى .

الدكتور المحاضر :

المجال لا يتسع للحديث عن الشاعرين الكبيرين اتساعا يفى بقدريهما . لو أن الوقت يسمح ، أو أن هدفى من هذه المحاضرة يمكن أن يدخل عليه عقد

مقارنات منذ أن كان مخصصا للحديث عن شوقى الشاعر الإنسان . ولكنى أوجز القول ، لأعرض إلى ظروف نشأة كل شاعر ، لأنها الركيزة التى ينبنى عليها مجمل اتجاه الشاعر وفلسفته ومراميه ، ولعلى بذلك أحقق قدراً من رغبة السائل .

لقد وقف بين الشاعرين حد يحول دون التقائهما عند هدف مشترك ، فاختلاف النشأة ودرجة الثقافة والبيئة والوراثة ، كلها عوامل تؤثر على نتاج وعطاء الشاعر ، ولكل من الشاعرين مدرسته وقاموسه وموسيقاه ، وألفاظه وجرسه وأهدافه ، وهذا أمر كما رأيتم ، يتطلب كتاباً ، يشرح من خلال شعر الشاعرين ، اتجاهاتهما وخصائصهما .

هذه الخلافات بين الشاعرين أثرت فى شعر حافظ الذى نشأ نشأة عوز ويتم وحاجة . كفله خاله حتى أنه عندما أحس بأنه عالة عليه ، هجر منزل خاله فى طنطا ليذهب إلى القاهرة وترك ورقة كتب فيها :

ثقلت عليك مؤونتى إنى أراهـا واهـيـنـه
فـافـرح فـإنى ذاهـب مـتـوجـه فى داهـيـنه

وقد أحس بالبؤس فأحسن التعبير عنه ، وقد ترجم رواية البؤساء لفيكتور هيجو حيث استهواه مضمونها ، وما تحمله بطلها من شظف العيش وضن النصيب ، وقد عبر حافظ عن ذلك أبلغ تعبير عندما وصف سعيه ودوام فشله فيه بقوله :

سعيت إلى أن كدت أنتعل الدما وعدت وما أعقبت إلا التندما

ونشأته فى كفالة خاله بسبب يتمه ، حملته على الإحساس فى التعبير عن اليتامى والأيامى . وأحس الظلم فحمل على الظالمين . وكان من غلاة الوطنيين ، حيث قد اكتوى بنار المستعمر ونار الحاكم المستبد .

وثار فى وجه الظلم عندما كان ضابطاً فى الجيش فى السودان ففصلوه وأعادوه إلى مصر وهو خالى الوفاض ، يواجه الحاجة والعوز ، فى رجولة وعفة يد لولا ما كان يحيطه به الإمام الشيخ محمد عبده ، بمساعدات لا تجرح شعوره كالتصحيح فى بعض الصحف أو مراجعة بعض الكتب .

ولكن موضوعنا اليوم يقتصر على إنسانية شوقى من خلال شعره ومن خلال جولاته فى مشرق كان أو فى مغرب .

لقد نشأ شوقى نشأة مختلفة كل الاختلاف ، فقد ولد فى بيت ميسور الحال من أب كان يعمل فى معية السلطان فى إستانبول أو فى قصر الخديو إذا عاد . وتوفيت والدته وهو صغير . ولما كان أبوه بعيداً فى إستانبول ، فقد كفلته جدته لأمه . وهذه الجدة هى السيدة (تمزار) معتوقة إبراهيم باشا والى مصر .

وهى من شبه جزيرة المورة . وقد كانت هدفاً للمغيرين الذين اتخذوا من خطف الفتيان والفتيات الجميلات مهنة يتكسبون منها ببيعهم أسراهم بأعلى الأثمان .

وكانت جدته من نصيب الوالى إبراهيم باشا الذى لم تلبث طويلاً عنده حتى أعتقها وهى فى سن العاشرة ونزلت عنده بمنزلة بنت من بناته . حتى أنها لما تزوجت وأنجبت كانت تتردد على قصر إسماعيل ، وكانت تصطحب معها أحمد شوقى .

وكان الصغير قد أصابته علة تركت عينيه فى اختلاج دائم وينظران دائما إلى أعلى ، الأمر الذى حمل الخديو إسماعيل على سؤال الجدة عن هذا الشأن الغريب ، فأجابت بأنه ولد هكذا ، فقال إن دواءه عندى ، ثم قام بنثر جنيهات ذهبية على البساط فهبط الطفل إلى الأرض وراح وراء بريق الذهب يجمع ما استطاع جمعه فى كفه الصغيرة ، وانخفضت نظراته وصار ينظر لفترة قصيرة نظرة طبيعية ولكنها سرعان ما تعود لحالتها الأولى .

وقال الخديو للجدة أرأيت كيف استطعت أن أشفى بعض الشىء ما ألم بالطفل ، فقالت الجدة : ومن أين لنا بهذا الدواء يا مولاى بصورة دائمة ، فأجابها : إيت به إلى صيدليتى هذه – وأشار إلى جيبه – وهذا هو دواؤه ، وهو معى كلما حضر.

* * *

وعندما صار فتى وجد أنه ولد وسط معترك من المشاكل الدولية المتأصلة . فقد كانت روسيا فى حرب مع تركيا ، وكانت تركيا دولة الخلافة ، وكان المصريون يعطفون على تركيا لهذا السبب ولروابط أخرى ووشائج القربى والنسب بين الكثير من العائلات فى البلدين .

وقامت خلافات بين فرنسا وإنجلترا بلغت حد الالتحام بالسلاح وكان هدفها احتلال مصر ، وتيسر لفرنسا أن تحتل مصر فى عهد نابليون فترة قصيرة ، ما لبثت بعدها أن انسحبت تحت ضغط الأسطول البريطانى ، وكانت بريطانيا تريد أن تحتل مصر لتأمين طريقها إلى الهند ، وكانت تريد أن تزيح إسماعيل من طريقها ، وتم لها ذلك وجاء من بعده توفيق الذى قامت فى عهده ثورة أحمد

عرابى التى لم تنجح بسبب الخيانة ، وبالتفاوت الكبير بين القوتين .

كان الإنجليز قد وعدوا بالجلاء ، ولكنهم نكثوا بعهدهم ، وأحس المصريون من كل ما كان يحيط بهم أنهم مطمع للدخيل من كل جنس ، فدبت فى أرواحهم مشاعر متأججة ، تريد التحرر من ذل العبودية والاستعمار والاستغلال ، فتزايد النشاط والدعوة إلى بعث الحضارة الإسلامية والأدب العربى فى مصر ، فهما الطريق إلى بعث الهمم والتذكير بما كان لأسلافهم من عزة ونخوة وحرية ، ومن الطبيعى أن تكون الكتابة والنظم والخطابة والندوات والاجتماعات هى السبيل إلى كل ذلك ، وكان الشعر أسبق كل هذه الوسائل إلى القلوب لما احتواه من موسيقى تعين على حفظه وترديده وسط هذه العوامل السياسية والاجتماعية .

ولد شوقى فى عهد إسماعيل ، وكان طبيعياً أن تتأثر نفسه الحساسة بالبيئة الاجتماعية والسياسية ، كما كان طبيعيا أن يكون هو بالذات ، الذى يتلقف أبعد الأحداث وأخفت الأصوات ، أكثر ممن حوله تأثرًا بهذه الحوادث ، وبهذه البيئة المشحونة بوقائع فى طيات الغيب ، لما حوته نفسه من شفافية ورقة .

وهكذا كان لكل هذه العوامل أثر بارز فى شعره وشعوره ، لازمه طوال حياته ، فقد أحس أنه موكل بأن يكون لسان أمته العربية بنظمه البعيد الأثر .

وقد دخل شوقى مدرسة المبتديان الابتدائية فى مصر ثم التجهيزية وهى الثانوية ثم مدرسة الحقوق الخديوية ، وحدث أن زار الخديو توفيق مدرسة الحقوق ، وكان شوقى وهو طالب بها قد بدأ يمارس كتابة الشعر ، وعنّ له أن ينظم فى هذه المناسبة أبياتاً من الشعر ، نالت استحسان توفيق ، فأمر بأن يرسله

فى بعثة إلى فرنسا ليدرس القانون فى إحدى كلياتها ، وليعيش فى جو وبيئة فنية تتفق وموهبته الباكرة التى انسابت فى بواكير شعره ، مبشرة بمولد شاعر عظيم ، وللبيئة أثرها على الفنان ، والاختلاط بأجناس أخرى والاطلاع على أدب الغرب ، والحياة النضيرة الفنية بين مسرح وموسيقى ورقص تعبيرى وغناء ، كل ذلك ينطبع أثره على الفنان ، ويكون بمثابة الوقود الذى يدفعه إلى الأمام بخطى واثقة سليمة .

على أن شوقى برغم كل ما أحاط به وهو فى أوربا ، وبرغم تأثره بالوسط الأوربى والحياة الأدبية الثرية والشعر الأوربى الرقيق ، وبرغم تأثره البارز بذلك ، فإنه لم ينس أنه شرقى عربى جاء ليغترف من منهل عذب يستعين به على ما كان يعد نفسه له . وكأنما جمع فى ذلك بما فى بناء معمارى عربى الطراز فى نقوشه وعمارته وزخارفه ، وما احتواه من طرائف غربية وصور فنية رقيقة الصنعة ، انتثرت فى أبهاء وغرف هذا البناء الشرقى ، فأكسبته طلاوة ورقة وجمالا ، من صور زيتية إلى طنافس وثريات وتماثيل وتحف بديعة الصنعة .

ولهذا نجد أن تأثره بالبيئة الأوربية لازمه طول حياته وأمده بروافد جديدة على الشعر العربى ، ككتابة المسرحية الشعرية والأوبريت وحكايات على ألسنة الحيوانات مثلما كان يصنع لافونتين ، وطرقه باب الأغانى بأخيلة حديثة على ما كان ينظم فى عصره أو ما سبق عصره أو ما جاء بعده ، مثل أغنية (فى الليل لما خلى) أو أغنية (بلبل حيران) . إنها قصص غنائية كأوبريت صغيرة فيها البداية والمضمون والختام ، وهكذا نراه من بين الشعراء فى عهده قد أضاف أوتاراً جديدة على قيثارة الشعر المألوفة .

والقارئ لأشعار شوقى تستوقفه ظاهرة عجيبة . إنه يقف أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف ، لا صلة بين أحدهما والآخر ، إلا أن كليهما شاعر مطبوع يصل فى الشعر الإنسانى إلى علياء سماواته ، وأن كليهما مصرى عربى شرقى يبلغ حبه لوطنه مرتبة القداسة والتفانى والعبادة له لأنه من خلق الله . أحدهما مؤمن عامر القلب والنفس بالايمان ، وإنسان يقف نظمه ومشاعره على كل ما يتأثر به وجدانه ، ما اقترب منه مما يثيره ، أو ما ابتعد عنه غاية البعد ولكنه يتصوره وتحس روحه الشفيفة به .

وهو حكيم يرى الحكمة نبراس العقل والإيمان ، وهو متعصب للغته العربية ، حريص على أن تأخذ مكانها بين أرقى لغات الأرض . فإنه يراها لغة تتسع بكل صورة وكل فكرة وكل معنى وكل خيال .

أما الرجل الآخر فهو رجل دنيا ونعيم ، يرى أن الله خلق النعيم فى الدنيا ودعا الناس إلى التمتع به ، فهو نعيم كفله الله لأبناء الحياة ليأخذوا منه بنصيبهم .

وهو متسامح تتسع نفسه للإنسانية والوجود كله .

وهو مجدد فى اللغة لفظاً ومعنى ومبنى ، لأنه يراها كما يرى كل ما فى الوجود ، كياناً حياً يجرى عليه ما يجرى على الأحياء .

نخلص من هذا إلى أن الازدواج الظاهر فى شعر شوقى بين دين ودنيا ، قد لازمه منذ أول شبابه حتى آخر عمره إلا قليلا .

وليس للازدواج النفسى عند الشعراء ، أو انقسام الشخصية عند الشعراء دخل فى هذا الشأن ، وأمامنا مثل واضح فى أبى نواس ، وما كان يقوله من شعر يتردد بين الشأنين ، فهل أبو نواس الذى قال فيما قال :

ألا فاسقني خمرًا وقل لى هى الخمر   ولا تسقنى سرًّا إذا أمكن الجهر

هو نفس أبى نواس الذى لَبِسَ لبوس الحكماء وذهب يقول :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت   له عن عدو فى ثياب صديق

أو هو الذى كان يبتهل قائلا :

لبيك إن الحمد لك   والملك لا شريك لك

وهناك رأى لباحث كبير فى مثل هذه الشئون النفسية ، ينطوى على منطق صائب وتحليل سليم ، فهو يقول إن هذا الأمر ليس ازدواجاً فى الروح . وما الحكمة الزاهدة التى هبطت على أبى نواس ، إلا فتور نفس أجهدتها اللذة والمتعة فأضعفتها ، فأخافها الضعف الذى ألجأها إلى حمى الحكمة والزهد وإلى استغفار الله والتوبة إليه .

وشوقى – كما ذكرنا – من هذا القبيل ففى شعره صورتان من صور الحياة ، يقوم كل منهما بدوره مستقلا عن الآخر كأنما قائلها شخص أجنبى تماماً عن الأول ، فأنت تقرأ له :

حف كأسها الحبب   فهى فضة ذهب

أو يطالعك من شعره قوله :

رمضان ولى هاتها يا ساقى   مشتاقة تسعى إلى مشتاق

وهنا ترى نفسك فى حضرة شاعر مغرم بالحياة ومتاعها وأنعمها ، ثم لا تلبث أن ترى صورة مخالفة تردد فى خشوع :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

أو تراه فى موضع آخر يقول فى نهج البردة :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم
يا نفس دنياك تخفى كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم

إلى أن يقول :

لزمت باب أمير الأنبياء ومن يمسك بمفتاح باب الله يغتنم

وشوقى فى يقينى وهو يتجسد هاتين الشخصيتين ، إنما يكشف عن دخيلة نفس تمتلئ بالحياة والخيال ونور الإيمان والتعلق بأسباب السماء ، وإعلاء كلمة الحق ، لأنه قبل كل ذلك وبعد كل ذلك إنسان يفيض حسه بالإنسانية وبكل كوامن النفس البشرية التى تعتريها القوة كما يعتريها الضعف .

* * *

والشاعر الإنسان فى مثل نشأة أحمد شوقى ، وما حباه الله به من فيض غامر فى العاطفة والإحساس والخيال الرفيع والصدق فى التعبير ، يتدرج مع تاريخ وطنه منذ عهود الفراعنة وما تعاقب على مصر من رفعة تارة وانخفاض تارة أخرى ، ويقف وقفة المصرى الصادق العاطفة ، حيث تفيض عليه ربة الشعر بما يؤنسه فى هذا الترحال من قصص يرويها عن رمسيس وأبى الهول وتوت عنخ

آمون وآمون وفرعون موسى ، إلى أن يصل إلى مصر العربية .

حيث تبين لقارئ نظمه ، روحه الإنسانية الشفيفة وهى تغوص ليستخرج اللآلئ من أعماق الأحداث ويعرضها فى موكب زاهر براق يبهر الأنظار ويوقظ الأفكار ، وكأنما هو قيثارة إلهية يدفع إليها كل جيل بأصفى نسائمه ، ليتغنى ويشدو بأهازيج النصر تارة ، وبترانيم المسرة طوراً ويشجو الألم أحياناً عندما يتعرض شباب ورجال جيله إلى منازلة الغاصب وما يلقونه على يديه من قهر وطغيان .

وهو فى عرضه لآثار بلاده وما حوته من إعجاز وطلاسم تجل عن كل وصف ، يقف موقف الإنسان من كل هذا الإبداع ، فلقد خلع القدم على هذه الآثار رداء البقاء والثبات ، وتحدى الزمن وطاول معاول هدمه ، وهذه أمور أمدت شوقى وروح شوقى وشاعرية شوقى الإنسان بما يفيض به الوحى على روح شاعر الشرق الذى شاءت إنسانيته أن يتحدث مع هذه الآثار ، وأن يزهو ببقائها ثابتة لا تزعزعها الحوادث أو مر العصور .

وله فى العلم والفن والعمل والجمال والترحال آيات بينات ، ينساب فيها روح الإنسان الداعى إلى التمسك بالخلق الصالح على اعتباره قوام الحياة فى الأمم ، وهو يرى أن الخُلُقَ القويم خيرٌ من الخَلْقِ القويم . وله بيت فى قصيدة طويلة أصبح يتردد على كل لسان ، كما غدا مثلا وبات دستوراً يدبر وينظم ويحكم .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولم يكن شوقى شاعرًا لمصر وحدها . فهو شاعر ينبض قلبه الكبير بحب

الإنسانية أينما وجدت على أى صورة تكون ، وهو لذلك لا تراه يفرق بين الأوطان ، فهو هو شاعر مصر كما هو شاعر العرب ، وشاعر الشرق ، وشاعر المسلمين ، وكل الأديان .

وهو فى موقفه من هذه الأحاسيس ، أشبه ما يكون بالرادار الإنسان ، الذى ترتسم على مخيلته كل ما يقع فى أى بقعة من بقاع الأرض من نكبات وأحداث ، أو من اعتزاز باختراع أو اكتشاف يدعو إلى الافتخار ، ويطرح فى شعره المعبر ما أثار وجدانه حيال هذه الأحداث .

فنى العشرينيات ، وقع فى طوكيو زلزال عنيف ، ما إن بلغ نبؤه مسامع الشاعر الإنسان شوقى واطلع على فداحة الكارثة ، حتى بادر بنظم قصيدة طويلة عن النكبة ، بدأها بقوله :

قف (بطوكيو) وطف على (يوكوهاما) وسل القريتين أين القيامة
قف تأمل مصارع القوم وانظر هل ترى من ديار عاد دعامه
خسفت بالمساكن الأرض خسفاً وطوى أهلها بساط الإقامه
دولة الشرق وهى فى ذروة العز تحار العيون فيها فخامه

إلى أن يقول :

لو تأملتها عشية جاشت خلتها فى يد القضاء حمامه

ثم يمضى ليقول :

تجد الأرض راحة حيث سالت راحة الجسم من وراء الحجامه
مالها لا تضج مما أقلت من فساد وحملت من ظلامه

سؤال من أحد الحاضرين :

لقد علمنا كيف أن شوقى درس فى فرنسا وارتوى من المدنية الغربية وانغمس فى كل ما يبهر منها وما يملأ النفس إعجاباً وتقديرًا ، فكيف تسنى له بعد هذه البداية ، أن يتعمق اللغة العربية ، وينظم الشعر العربى الذى تميز بديباجة قوية النسج وبألفاظ رقيقة الجرس ، وببلاغة فيها البيان والبديع والمعنى الجليل والخيال الفريد حتى بز من سبقه أو من خلفه وأتى بعده . . هذا إذا تركنا جانباً نشأته فى بيئة بعيدة عن الاهتمام بالعربية .

المحاضر :

أحس شوقى بعد عودته إلى مصر من بعثه فى فرنسا ، أنه ليس شاعر مصر وحدها التى ينتمى إليها ، فقد كان قلبه وأحاسيسه تجيش بأخيلة وصور ومعان ولغة وبيان ، تتسابق لتحتل إرادته التى لا تلبث أن تطيع تلك الأحاسيس الجائشة ليطرحها شعرًا علوى النسق والنسيج ، فهو إذن موكل برسالة ، وهو إذن ممن أمسكت بهم شرارة الفن المقدسة ، فكيف يقنع بأن يكون شاعر مصر . إنه شاعر العرب أجمعين وشاعر المسلمين وشاعر كل العقائد وشاعر الشرق ، ووجد أن هذه المسئولية التى هى إرادة علوية مقدسة تتطلب منه أن يوفر لها أثمن ما لديه من أخيلة وصور ومعان ، ليكون شاعر اللغة العربية السليمة ، طالما كان هو لسانها وخطيبها والسباق إلى ذكر مناقب العرب ، وما كان لهم منذ الفتح الإسلامى من عز وسؤدد ، ومن آثار ما تزال شاهدة على ما كانوا عليه من قوة ومعرفة وحضارة ، كان عليه أن يتزود من كتب الأقدمين

ودواوين الشعر العربي الرصين ، منذ العصر الجاهلي حتى العصر الإسلامي عندما كان في مجده التليد .

ومما لا شك فيه أن الحكمة التي يستمدها شوقي من إنسانيته التي تفيض بها مشاعره ، تجدها تسري في وصفه وفي غزله وفي رثائه وفي تهانئه وفي استخلاص العبرة من الأحداث التي تقع حوله ، بلسان عربي فصيح مبين ، منذ أن كان هو سجل هذه الأمة العربية والمتحدث عن أدق الأحاسيس الإنسانية التي يراها في زهر أو جماد أو إنسان .

وهو في كل ما نظم لا يشعر له بأنه تأثر بالحياة الغربية إلا بمقدار ما تحتاج إليه الأمة العربية ، من نصح أو إرشاد أو تقليد لفضيلة يحسن انتهاجها .

ولقد نرى شوقي يغلو في شرقيته وعربيته أحياناً ، ولقد نراه يتعمد ذلك في لفظه ومعناه ، ومرد ذلك إلى ما رآه من ضرورة مقاومة النزعة القائمة التي تتحكم في نفوس كثيرة ، وتعمل على إهمال ما خلف السلف من تراث ، والأخذ بكل ما هو جديد أو مستحدث .

وهو في بعثه للقديم إنما يصدر عن إنسانية تتشبث بالحياة ، وبالقديم ، فهو إدخال ما يزيد هذه الحياة نضارة وقوة وازدهاراً ، وهو ما رآه واجباً يحمل هو مسئوليته ويتولى شأن تقويمه .

فهو يعمد إلى بعث القديم من الألفاظ التي نسيها الناس ، وتنكروا لها . وسر ذلك عند شوقي ، أن البعث وسيلة من وسائل التجديد وعودة الروح . بل قد يكون البعث أكثر وسائل التجديد انتشاراً ونجاحاً والتجديد له ، إلى جانب ربط السلف بالخلف ، معنى إنساني يتمثل في الوفاء وتوقير القديم .

وشعر شوقى ملىء بالأمثلة الدالة على قدرة فائقة لا تجارى فى بعثه لألفاظ قديمة ، وإفاضته عليها من رقيق شعره ما يجعلها تتسع لما لم تكن تتسع له من قبل ، من المعانى والأخيلة والصور ، وهكذا نراه خلاقاً ومبدعًا وباعثًا الحياة فى ألفاظ وجمل وتراكيب أوشكت أن تندثر ، فمضى كالطبيب الماهر يضفى عليها من عرفانه وقدراته ، بما يمدها بالحياة ، لأنه محب للحياة ، ولأنه ينظر إلى كل ما حوله بمنظار إنسانى ، تشيع فى جوانبه الحركة والقوة والنماء ، فهو إنسان يحب كل إنسان ما دام هذا الإنسان قادرًا على العطاء الطيب ومتمتعًا بالخلق السوى ، فهو يرى أن الأخلاق هى أصل الحياة . وركيزة الإنسانية . وقوام كل عمل جليل .

وهو يمجد كل شىء يعطى ويبعث الحياة ويمقت كل ما يدمر الحياة أو من يدمرها ، ويهلك من على الأرض بغرض القوة والسلطان ، ولأنه شاعر فهو محب للسلام وللجمال وللخير ، ويرى الحياة من حوله ربيعًا مزدهرًا بأينع الأزهار ، تؤنسه زقزقة العصافير ونواح الأطيار ، اسمعه فى موقف من هذه المواقف :

وشدت فى الربا الرياحين همسًا كتغنى الطروب فى وجدانه
نِعَمٌ فى السماء والأرض شتى من معانى الربيع أو ألحانه

المحاضر :

أستأذنكم أيها السادة فى أن أنتقل بكم إلى جانب من جوانب شوقى الإنسانية فى مواقف كانت تثير نفسه وتحمله على النظم ، وقد كان كل ما ينظمه

يسرى مسرى النسيم على كل لسان . وكانت قصيدته التى تنشرها صحيفة من الصحف تتلقفها الأيدى ، وتصبح حديث المجتمع ومثار مناقشاته ، وهو أمر كان يعمل له المستعمر ألف حساب .

ففى مناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة المرحوم مصطفى كامل باشا زعيم الحزب الوطنى ، نظم قصيدة تناول فيها ما أصاب البلاد عام ١٩٢٤ من انقسام وتشاحن وتناصر ، وأشار إلى تصريح ٢٨ فبراير الذى تضمن التحفظات الأربعة وهى التى قيدت استقلال البلاد وجعلته مسخاً ، كما تناول موقف بعض الزعماء حياله ثم ذكر ما تحتاجه البلاد ونصح باستخدام وسائل للإصلاح ونبذ الخلاف . ذهب يقول :

إلام الخلف بينكمو إلاما ؟ وهذى الضجة الكبرى علاما ؟
وفيم يكيد بعضكمو لبعض وتبدون العداوة والخصاما ؟

إلى أن يقول :

وكانت مصر أول من أصبتم فلم تُحص الجراح ولا الكلاما
إذا كان الرماة رماة سوء أحلوا غير مرماها السهاما
طلعنا وهى مقبلة أسوداً ورحنا وهى مدبرة نعاما
ولينا الأمر حزباً بعد حزب فلم نك مصلحين ولا كراما

إن شوقى فى هذا الموقف يقف موقف المعلم الإنسان الذى يخشى عاقبة هذا التناحر ويبشر بأوخم العواقب ، وما له من مقصد أو غاية إلا رفعة الإنسان

وأما موقفه من مذبحة دنشواى فقد نظم بعد مرور عام على هذه الحادثة الأليمة ، بعد ما نظمه عند وقوعها ، قصيدة ضمت بكل الإباء ، طلب العفو فيها من سجنائها ، مستعيناً بالأثر الذى تركته القضية فى الضمير العالمى ، كما أثارت مناقشات فى مجلس العموم البريطانى كان من نتيجتها إبعاد كرومر من مصر :

يا دنشواى على رباك سلام	ذهبت بأُنس ربوعك الأيام
شهداء حكمك فى البلاد تفرقوا	هيهات للشمل الشتيت نظام
مرت عليهم فى اللحود أهلة	ومضى عليهم فى القيود العام
كيف الأرامل فيك بعد رجالها	وبأى حال أصبح الأيتام
عشرون بيتاً أقفرت وانتابها	بعد البشاشة وحشة وظلام
ياليت شعرى فى البروج حمائم	أم فى البروج منية وحمام
(نيرون) لو أدركت عهد (كرومر)	لعرفت كيف تنفذ الأحكام

* * *

ولم تكن تمر بالعالم أحداث من كوارث طبيعية أو حربية أو اجتماعية ، إلا وشارك بنظمه داعياً جمعيات الصليب الأحمر والهلال الأحمر والحكومات والشعوب إلى مد يد العون لهؤلاء البؤساء الذين أصابتهم محن هذه الأحداث .

هذه المشاركة الوجدانية للمصابين ، لا تنبع إلا من قلب امتلأ بحب الإنسانية الشاملة ، التى لا تفرق بين دين ودين أو جنس وجنس أو لسان ولسان . إن البشر كلهم عنده سواء ، إنهم أبناء الإنسان الأول آدم . وهم خلق

الله العلى القدير الذى يسبح دائماً بحمده ويستزيد من رضاه على خلقه .

أما صوره الدينية الشعرية التى شدت بها الراحلة الكريمة السيدة أم كلثوم ، فإنها تفيض بنفثات روح إنسانية وسبحات قلب يدعو إلى تعظيم الله وإشاعة المحبة بين خلق الله ، ولقد تسنى له بهذه القصائد أن ينشر معانيها إلى العامة قبل الخاصة بفضل ما أودعه فيها من تهجد وابتهال ، وبفضل ما خلعه الموسيقار القدير رياض السنباطى على ألفاظها ومعانيها من جلال وجلاء ، وكان الصوت المخملى النادر الذهبى لأم كلثوم ، هو الموصل بحلاوة إنشاده وطلاوة إيقاعاته وسبحاته ، لكل الآذان وكل الأفهام مهما ابتعدت المعانى من المستمعين الذين كانوا يدركون من قدرة الصوت ورقة اللفظ ورشاقة النغم ما لا يستطيع الإنشاد وحده أن يقوى عليه .

وماذا أقول وماذا أدلى فيما نظمه فى سيد الخلق النبى الكريم محمد عليه الصلاة والسلام :

ولد الهدى فالكائنات ضياءُ   وفم الزمان تبسم وثناء

أو نظمه :

سلوا قلبى غداة سلا وتابا   لعل على الجمال له عتابا

وفيها يقول :

ولا ينبيك عن خلق الليالى   كمن فقد الأحبة والصحابا

أو نظمه :

ريم على القاع بين البان والعلم   أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

* * *

وفى كل هذه القصائد النبوية نجد الحاسة الإنسانية بارزة بروزًا محسوسًا ملموسًا ، لا ينسى فيها بطر الغنى ، أو ينسى حاجة الفقير.

ولولا ما امتلأ به قلبه من الإيمان ، ومن العالمية فى الأديان ، وفى حق كل مخلوق فى التمتع بما خلق الله ، لما استطاع أن يبلغ هذا الشأن وهذه الروعة ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

أحد الحضور :

أستأذن الدكتور المحاضر ، فى سؤال يلح علىّ كلما قرأت لشوقى – وما أكثر ما قرأت – شعرًا عربيًا بأفصح لسان وأبدع بيان فأسأل نفسى من أين لشوقى كل هذا العلم بالفصيح من اللغة ، والنادر من البيان ، والرقيق من الديباجة ، وهى أمور تتطلب التخصص والقعود للتفرد فيها ، وهو قد ترعرع فى بيت عز ويسر ، يعفيه مشقة البحث والاجتهاد ، ويوفر له مطالب الحياة من أقرب سبيل وأهون وسيلة ، هذا إلى جانب أنه تربى فى مطالع شبابه تربية أوربية ، وتلقى العلم فى معاهد فرنسا ، وعاد وهو على هذه الحالة من البلاغة والفصحى السليمة القويمة .

المحاضر :

لم تكن نشأة شوقى فى قصر والديه ، محاطاً بكل ما تصبو له النفس ، بمانعة من تحقيق صبوات نفسه ومحبته للغة العربية ، والغوص وراء دورها ، ما دامت قد استهوته وملكت عليه كل مسالك تفكيره .

وحبك الشيء يحملك على أن تستهين بكل مشقة لبلوغه .

وقد قال شوقى فيما بعد فى البوصيرى ، عندما نظم نهج البردة ، التى حوت أشرف المدح فى سيرة الرسول الكريم :

مديحه فيك حب خالص وهوى وصادق الحب يملى صادق الكلم

وفى تصورى أن الفترة التى أمضاها شوقى فى بعثته بفرنسا لم تكن حائلا له من بلوغ هواه من الاطلاع الدائب على كنوز اللغة العربية وآدابها ، ما دامت نفسه تواقة إلى هذه الرغبة ، متلهفة على بلوغها ، فالكتب العربية بأقلام أفذاذ الكتاب فيها ، فى متناول يده مهما شط المزار وابتعد أو اغترب ، طالما كان حبه العارم لبلوغ هدفه هو شاغله ومهوى قلبه وعقله ونهاه ، وكان ميله هذا قد بدأ باكرًا فى حياته . وقد تحرك هواه للشعر منذ مطلع حياته . فنظم قصيدة عندما كان يطلب العلم فى مدرسة الحقوق الخديوية أمام الخديو توفيق ، وكانت من حسن الطالع قد وجدت سبيلها سهلا ليناً إلى قلب الخديو الذى أمر بإرساله إلى فرنسا فى بعثة لاستكمال دراسة القانون ، ولينهل من موارد فرنسا العذبة ، وما بها من مجالات تجمع بين المتعة والعلم ، فما شئت من نعيم أو رغد العيش أو المرح الشجى ، طوع بنانك ما دمت قادراً ، وما شئت من علم وفن وأدب فى أعلى ذراها منتشرة فى كلياتها ومجامعها وندواتها ومعاملها ، وما شئت من فنون

المسرح والتماثيل والصور ، فوق العدد والحصر ، وما شئت من رياض ومعان تحرك الوجدان وتوحى بأجمل الكلام نثراً كان أو شعرًا ، تلقاه أينما وليت وجهك ، هذه الفنون جميعها إلى جانب ما حواه قلب شوقى من حب عارم للغة العربية ولنظم الشعر ، كانت هى الخلفية والقاعدة والعون فى ترقيق أى حس كان شوقى فى غنى عنه ، لأنه ولد مؤهلا لقول كل جميل ، هذا إلى جانب أنه نذر نفسه لأن يتبوأ من دولة الشعر أعلى مقام ليتحقق له بذلك أن يكون شاعر العرب ، منذ أن اجتمعت له موارد ومواهب وهواتف كانت قمينة بأن تأخذ بيده إلى هذا المرتقى السامق الرفيع .

فكيف يتوانى عن أن يستكمل كل مستلزمات هذا المطلب العسير ، مهما كلفه أمره من اطلاع دائب دائم ، ومن رجوع إلى موسوعات القواميس وجوامع الكلم ودواوين الشعر منذ العصر الجاهلى حتى شعر العصر الوسيط وما تلاه ، وكان أبو الطيب المتنبى شاعره الأثير ، الذى جذبه إليه حبه للحكمة والدأب الدائم فيما يصبو إليه ، وما يتميز به شعره من ديباجة رفيعة النسج ومن لفظ تترقرق فيه موسيقى محببة شجية .

وإذا كان ابن رشيق – شيخ نقاد عصره – فى كتابه (العمدة) ، قال عن المتنبى :

« حتى ظهر المتنبى . فملأ الدنيا وشغل الناس » . فإنى أعتقد وأجزم بأن ابن رشيق لو شهد عصر شوقى لقال :

« حتى ظهر أحمد شوقى فشغل الدنيا وبهر الناس »

وكيف لا يبهر الناس من نظم فى آثار الفراعنة .

صور تريك تحركا والأصل فى الصور السكون
ويمر رائع صمتها بالحس كالنطق المبين
صحب الزمان دهاتها حيناً عهيداً بعد حين
خدع العيون ولم يزل حتى تحدى اللامسين

أو الذى يقول أو يصور فى دمر (إحدى ضواحى دمشق) هذه الصورة :

والحور فى (دمر) أو حول هامتها حور كواشف عن ساق وولدان
وربوة الواد فى جلباب راقصة الساق كاسية والنحر عريان

وهو يصف شجر الحور بالنساء الحور والراقصات ، فشجرة الحور تمتلئ جذورها وسيقانها بالغصون والأوراق ، فى حين تخلو أعاليها من هذه الأوراق ، شأن الراقصة التى يتعرى نحرها وتكتسى ساقها ، نرى فى هذين المثلين أو الصورتين الناطقتين النابضتين بالحياة التى أودعها فيها الشاعر الإنسان الفنان القدير ، إن هذا الشاعر يكلف بالخلق وبعث الحياة فيما يصف أو يحكى .

لقد بلغ الذروة عندما بعث بالحركة والحياة فى آثار الفراعنة ، حتى جعلها تخدع العيون النواظر ، وجعلها فوق ذلك من فرط الإتقان والروعة ، تتحدى اللامسين .

وكأنما أراد الله فى محكم عدله فى كل الأمور ، أن يمنح شوقى كل هذه المواهب التى تنطوى على شعر موسيقى ، وذوق رفيع ، ولفظ جزل ، وديباجة قوية النسج ، فريدة النهج ، إلى جانب إنسانية تفيض بها مشاعره وتجرى فى

أحاسيسه ، ارتفعت به إلى مصاف المصلحين الداعين إلى الخير وإلى نبذ الشر ، أراد الله – كما ذكرنا – أن يحرمه من القدرة على قراءة ما ينظم لعلة عصبية كانت تلازمه وتعتقه عن القراءة من الورقة المعدةُ للإلقاء ، بسبب اختلاج عينيه وعدم ثباتهما ، مع النظر إلى أعلى ، دون ما استقرار .

ومن قبله فقد (بيتهوفن) سمعه فكان يمتع سامعيه بالنادر من سيمفونياته دون أن يقدر على سماع عزفه ، مكتفياً بشعوره بعطائه الجيد النادر المثال .

من أجل ذلك تعذر على شوقى أن ينشد شعره مما حمل بعض الألسنة الحاسدة على نقده والطعن فيما لا قدرة ولا يد له فيه ، الأمر الذى حمل شاعر النيل حافظ إبراهيم إلى أن يرد عنه شر هذه الألسنة بقوله :

يعيبون شوقى أن يرى غير منشد ... وما ذاك عن عى به أو ترفع
وماكان عيباً يجىء بمنشد ... لآياته أو أن يجىء بمسجع
فهذا كليم الله قد جاء قبله ... بهارون ما يأمره بالوحى يصدع

ومن الحكم البالغة قولهم « إن القدر يعطى على قدر ما يأخذ » .

وقد كان المغفور له الكاتب الكبير فكرى أباظة والدكتور الأديب سعيد عبده من المنشدين لشعره فى المحافل والندوات .

* * *

ويجدر بنا ونحن بسبيل تحليل نفسية أحمد شوقى الشاعر الإنسان ، أن نذكر أنه كان كبير الإيمان ، والإيمان مبعث كل الفضائل ، والرجل المؤمن يخاف الله ويعطف على البائس ويعين الضعيف ، ويسأل الرحمة بالمكدودين الكادحين ،

حتى لتظن أنه موكل بالدفاع عن فريق كبير من البشر ، حرموا الحق فى الحياة ، وإن كان لهم فى كافة الشرائع ، وفى منطق الإنسانية ، نصيب فى أموال الأغنياء ، فلا يصح فى العقول أن يموت ثرى من التخمة ويموت فقير من الجوع ، مما حمله على أن ينظم أبياتاً فى قصيدة (ولد الهدى) تناولت هذه العاطفة الإنسانية الكريمة :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة	بالحق من ملل الهدى غراء
بنيت على التوحيد وهى حقيقة	نادى بها سقراط والقدماء

إلى أن قال :

الله فوق الخلق فيها وحده	والناس تحت لوائها أكفاء
الاشتراكيون أنت إمامهم	لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة	وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة	لا منـة ممنونـة وجبـاء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله	حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالكل فى حق الحياة سواء

إنك تحس وهو فى موقف الدفاع هذا عن حق الفقير فى مال الغنى ، عن طريق الزكاة ، التى هى ركن من أركان الإسلام ، بأنك أمام إنسان ينتمى إلى عراقة فى الإنسانية وأصالة فى اختيار اللفظ والمعنى ، بحيث لا يشعر الفقير بأنه يسأل له إحساناً ، ولكنه يشعره بكرامته وبحقه فى مال الغنى إحقاقاً للحق وتحقيقاً لشريعة الله .

أحد المستمعين :

لا نشك فى إنسانية شوقى التى حملته على أن يشارك ويسهم بنظمه فى كل حدث يدعو إلى البذل والعطاء ومد يد العون ، غير أن العصر الذى عاشه شوقى لم تكن وسائل الإعلام والنشر منتظمة ومتنوعة أو قادرة على إيصال ما ينظم لكافة الناس ، فكيف تسنى للناس وللأقلام وللمتابعين للحركة الأدبية ، بما تضم من مقرظين أو ناقدين ، أن يلموا بما حواه شعر شوقى من أهداف بعيدة ، ومرام سامية ، ربما تفرد بها بين الشعراء ، منذ أن كانت الحكمة والدعوة للوئام وحب الخير والعطف على الكادحين والتحرر من كل قيد يعترض الحرية ، ومنذ أن كانت كل هذه الصفات والمزايا تنساب فى شعره كعروق الذهب فى مناجمه أو حبات اللؤلؤ فى العقد المنظوم ، وكيف يتسنى العلم بكل ذلك فى أقصر وقت وبأسرع وسيلة ؟ .

الدكتور المحاضر :

هذا سؤال جاء فى حينه قبل أن ندخل إلى عالمه الإنسانى الكبير كعائل يتعلق بأبنائه وأسرته والمقربين إليه ، وكعاشق لوطنه وللأمة العربية جمعاء ، وكأخ تحس الفرحة فى تهنئته لأحد الأصدقاء بخير ناله ، كما تحس الحسرة والألم اللافح عند مواساته لصديق نزلت به مصيبة . إنه فى إخوانياته إنسان . قبل أن يكون خليلا أو خديناً أو صديقاً لأحد من الناس .

أما عن عجبك من كيفية وصول ما ينظم شوقى إلى أسماع الناس ، فى عصر عزت فيه وسائل النشر السريع ، فإنى أعود إلى ما سبق أن ذكرته عن منزلة

شوقى فى عصره ، ووقوفه كالمسجل لأحداث التاريخ وعبر الأيام ، فإن شعر شوقى كان من سلاسته وموسيقاه ، ورقة ألفاظه ، تعيه الذاكرة بأقل الجهد وأسرع الوقت ، فمن فاته قراءته فإنه لا يعدم أحد حفاظ شعره ليسمع منه ما جاءت به ملكته الفريدة فى النظم ومحتواه فى مختلف المرامى الكريمة ، وكانت الندوات الأدبية فى العواصم أكبر عون على هذا الانتشار .

وكان يكفى أن تنشر له صحيفة من صحف الأخبار ، أو مجلة أدبية قصيدة فى شأن من الشئون ، حتى يتهافت عليها الناس ، لتكون سمر المجالس وأنس المتأدبين ومادة للتعليق والحفظ والمناقشة .

وكانت الندوات الأدبية وسيلة كافية لنشر نظمه بين الناس على ألسنة الحاضرين لهذه الندوات وبصورة لا يقلل من شأنها قصور وسائل النشر .

ولعلى أكون بعد ردى على استعلام السائل ، قد بلغت باباً ، نلجه لنتعرف منه على الشاعر أحمد شوقى الإنسان بين أسرته . وكيف كان يداعبهم ويحن إليهم حنين الوالد المحب العطوف السخى فى حنانه والمعطاء فى حدبه على هذه العائلة التى كان يرعاها .

لقد أنجب شوقى الشاعر الإنسان ، ابنين وابنة ، هم على التوالى : على ، وأمينة ، وحسين .

وكان ابنه على دمث الخلق متواضعاً ، حيياً كوالده ، وعاش عيشة هانئة ، والتحق بعد إنهاء دراساته بخدمة السلك الدبلوماسى الذى بلغ فيه درجة سفير . وقد كانت آخر وظائفه فى هذا السلك ، هى عمله كسفير لمصر فى دولة الفاتيكان بإيطاليا .

عندما بشر شوقى بابنه على ، لم تكن الأحداث وقت ولادته بمستقرة أو مستتبة ، مما دعاه إلى أن ينظم مداعباً :

صار شوقى أبا على فى الـــزمـــان الترللى
وجـــنـــاهـــا جـــنـــايـــة لـــيس فيهـــا بـــأول

وكان على حبه له وعطفه عليه وحنانه الصادر عن قلب شاعر عطوف إنسان ، يشفق عليه من القادم من أيام لم تكن تسفر عما يختفى فى جوفها من أحداث لا أمن فيها ولا أمان منها .

ونظم فى صدد ذلك :

علىُّ إذا استشرت أباك قبلا ! فإن الخير حظ المستشير
إذن لعلمت أنا فى غناء وإن نك من لقائك فى سرور
وما ضقنا بمقدمك المفدَّى ولكن جئت فى الزمن الأخير

وقال أيضًا وهو يشير فى لماحية ذكية ، إلى أنه لن يكون وريثاً فى الشعر لأن الله سبحانه هو الذى خلق شوقى وحده لهذه المهمة :

ورزقت صاحب عهدى وتم لى النسل بعدى
هـــم يحسدونى عليه ويـــغـــبـــطـــونى بســـعـــدى
ولا أرانـــى ونجلـــى ســـنـــلـــتقى عـــنـــد مجد
وســـوف يـــعـــلـــم بـــيتى أنى أنا النسل وحدى

فـيـا علی لا تـلـمني فما احتقارك قصدی
وأنت منی کروحی وأنت من أنت عندی
فـإن أسـاءك قولى كذب أباك بوعد !

* * *

ونشأ على ، كما تنبأ له والده الكبير أمير الشعراء . فلم يكن يعير الشعر أى اهتمام بل لم يكن يحفظ من كل ما نظمه شوقى الخالد بيتاً واحدًا ، أما ابنه حسين وهو أصغر أبناء شوقى ، فقد كان يميل إلى الاطلاع على الأدب الفرنسى والأدب والشعر العربى ، وقد نظم قصيدة قصيرة لحنها الموسيقار عبد الوهاب فى الثلاثينيات وغناها وكان مطلعها :

سهرت منه الليالى ما للغرام ومالى
إن صد عنى حبيبى فلست عنه بسالى
يطوف بالحب قلبى فراشة لا تبالى

وعندما بدأ جمع قصائد أمير الشعراء أحمد شوقى لطبعها فى أجزاء الشوقيات الأربعة ، قامت دار الكتب المصرية بالإشراف على ذلك الطبع مستعينة فى مراجعتها بكبار أدباء دار الكتب ، وقد اشترك ابنه حسين شوقى فى هذه المراجعة وخاصة فى الجزء الرابع ، كما ألف كتباً عن والده شوقى .

* * *

أما ابنته أمينة فقد كانت قرة عينه ومبعث هنائه ، كما كانت نبعه الصافى الذى يستقى منه أطهر عاطفة أبوية ، وأسمى محبة تربط والدًا بابنته ، وكانت هى

الأثيرة عنده ، فهى الابنة الوحيدة بين ولدين .

ومن عجائب الأقدار أن كانت ولادتها ساعة وفاة والده مما حمله على أن يقول :

في ليلة سميتها ليلتى لأنها بالناس ما مرت
أذكرها والموت فى ذكرها على سبيل البث والعبرة
ليعلم الغافل ما أمسه ما يومه ما منتهى العيشة

إلى أن يقول :

الموت عجلان إلى والدى والوضع مستعص على زوجتى
حتى بدا الصبح فولى أبى وأقبلت بعد العناء ابنتى
فقلت أحكامُك حزنا لها يا مخرج الحى من الميت

وكان لا يفتأ يذكرها كلما مر عام من عمرها ليسجل لها شيئاً من نظمه ، فهو يراها متعة قلبه ومراح نفسه . وراحة عينيه ومقبل هنائه ومبعث وحيه الطاهر الشفيف .

وكان من فرط ولعه وحبه لها ، دائم الخوف عليها والرعاية لها والعناية بها .

وعندما أكملت عاماً نظم فيها أبياتاً منها :

أمينتى فى عامها الأول مثل المَلَكِ
صالحة للحب من كل وللتبركِ
كم خفق القلب لها عند البكا والضحكِ

وكم رعتها العين فى السكون والتحركِ
فإن مشت فخاطرى يسبقها كالممسكِ
ألحظها كأنها من بصرى فى شركِ
فيا جبين السعد لى وياعيون الفلكِ
ويا بياض العيش فى الأيام ذات الحلكِ
إن الليالى وهى لا تنفك حرب أهلكِ
لو أنصفتك طفلة لكنت بنت الملكِ

* * *

ونحن عندما نتمثل بشعر شوقى فى أولاده ، إنما نكشف عن الإنسان فى شوقى ، وعن الوالد العطوف الشغوف بحب أبنائه حباً ملك عليه حياته العاطفية كلها ، وليس من العجيب أن يحب والد أبناءه ، ولكن أن يحب مثل هذا الحب الكبير ، من والد كانت أعباء وظيفته فى القصر ، ومواكبته للأحداث فى أى بلد عربى أو أسيوى يحتاج إلى تهنئة أو مواساة ، وانصرافه إلى إدارة أعماله فى مكتبه الخاص فى وسط المدينة كل هذه الأعباء ، وما كان يشغله مما يجرى على الساحة العربية والإسلامية وما يترقب الإنسانية من حروب وأحداث دولية ، فنقول ، إن كل هذه الأعباء لم تصرفه يوماً عن مداعبة أبنائه ونظم ما يراه من الشعر الرقيق الإنسانى النزعة ، والذى تلمس فيه وقْدَ الحب العارم لفلذة الكبد وراحة الفؤاد ، فعند بلوغ أمينة سنتها الثانية نظم شوقى فيها هذه الأبيات :

أمينة يا ابنتى الغالية أهنيك بالسنة الثانية

وأسأل أن تسلمى لى السنيـ ـن وأن ترزقى العقل والعافية
وأن تقسمى لأبر الرجال وأن تلدى الأنفس العالية
ولكن سألتك بالوالدين وناشدتك اللعب الغالية
لكم سهرت فى رضاك الجفون وأنت على غضب غافية
وكم قد خلت من أبيك الجيوب وليست جيوبك بالخالية
وكم قد مرضت فأسقمته وقمت فكنت له شافية
ويضحك إن جئته تضحكين ويبكى إذا جئته باكية
فلو حسدت مهجة ولْدها حسدتك يا طفلة لاهية

أحد الحاضرين :

نحن نعلم أن الشاعر الإنسان شوقى نظم مسرحيات شعرية كثيرة ، وهو جهد لا يستشعره إلا من جاس خلال هذه المسرحيات مثل مصرع كيلوباترا ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعلى بك الكبير ، والسيدة هدى وغيرها ، فهل هو فى اختياره مواضيع هذه المسرحيات ، كان ملتزما بالروح الإنسانية التى سرت فى كل نظمه وفى كل ما كان يحرك بين جنبيه طرح ما ينظم ؟

الدكتور المحاضر :

كان شوقى من الرعيل الأول من شعرائنا فى نظم المسرحية الشعرية ، وإليه يرجع الفضل فى قيام المسرح الشعرى من كبوته ، بعد محاولات فى مسرحيات

شعرية مترجمة كشهداء الغرام ، وكانت مسرحية غنائية ، كان الشيخ سلامة حجازى صاحب الدور الأول فيها .

وعندما أحس شوقى أن دوره كمسجل لأحداث الشرق ومصر بصورة خاصة ، وكمؤرخ لتاريخ مصر منذ العهد الفرعونى حتى العهد الذى عاشه ، وجد أن لديه طاقة تعينه على نظم مسرحيات شعرية ، وراح يقرأ المراجع الكثيرة وما كتب عن قصص كليوباترا ، أو المجنون ، أو قمبيز . بل ذهب فى هذا الشوط إلى حد أنه أقام فى داره (كرمة ابن هانئ) مسرحًا صغيرًا (ماكيت) كان يستعين به وهو ينظم ، على تخيل مواقف أبطال المسرحية ، استجلاباً للواقعية . .

وقد فتح الباب بذلك أمام الشاعر الكبير عزيز أباظة الذى ولج هذا الباب من بعده ، وأحسن وأجاد فيما قدم من مسرحيات شعرية عديدة .

وكان شوقى كما تفضل السائل ينفث الروح فى القصص التاريخية التى أخضعها للنظم العربى والموسيقى والشعر العربى ، وللمواقف الدرامية الإنسانية التى وقف نفسه على إلباسها الوشى الجميل والديباجة القوية النسج ، والنغم الشعرى المصفى الذى يعبر عن المواقف التى ابتدعها ، وجرت سلسبيلا عذب الخرير .

وقد اختار الموسيقار محمد عبد الوهاب مشهدين من مسرحيتين عكف على تلحينهما تلحيناً كتب له الخلود ، واستحق عليه من جمهوره أجزل الإعجاب .

استمع إليه فى كليوباترا وهو يغنى فى دور أنطونيو :

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا ما لروحينا عن الحب غنى

رجعت عن شجوها الريح الحنون وبعينينا بكى المزن الهتون
وبعثنا من نفاثات الشجون فى حواشى الليل برقاً وسنا

* * *

غردى يا طير واشهد يا وتر وارو ياليل وحدث ياسحر
كم جنينا من ربا الأنس الصفا ورشفنا من مجانيها المنى
نحن قربنا له مُلْكَ الثرى ولقينا الموت فيه هينًا
هو أعطى الحب تاجى قيصر لم لا أعطى الهوى تاجى منا

* * *

هذا الموقف التاريخى الغنائى التمثيلى ، يجمع كل ما فى الأوبرا أو الأوبريت من تمثيل وأداء وصوت وتعبير موسيقى بارع ذكى ، يشهد للملحن بالنبوغ والاقتدار ، إلى جانب المواقف التى تزخر بالإنسانية مجسمة فى الوفاء حتى الموت ، بين الحبيبين العاشقين كليوباترا ومارك أنطونيو ، وكان النظم الدقيق الرقيق خير عون للملحن ، وأبهر ضوء كشف عن المواقف وخلجات نفوس أبطال المسرحية التى امتلأت مواقفها بالوفاء والتفانى .

وعندما تناول الموسيقار مشهداً من مسرحية مجنون ليلى ، حشد فى الموقف مشاعر إنسانية كان شوقى قد أدار بقدرته الفائقة ، حوارها الذى بعث فيها الحياة ، حتى بات ما تراه ، ملموسا محسوساً منذ أن أودعه حشاشة نفسه وحنين قلبه ، مما أعان عبد الوهاب على أن يخلع بموسيقاه على هذا المشهد أرق الأنغام ، وأشجى الموسيقى ، فى حوار لا يصدر إلا عن حبيبين ذاقا مرارة الحرمان .

وهكذا ترجم شوقى بشعره الفريد خلجات النفوس وخفقات القلوب فى صورة تبعث الشفقة وتستدر الرحمة بالعاشقين ، المجنون وليلاه .

اسمعه فى هذا الحوار الحى :

قيس : ليلى بجانبى	كل شىء إذا حضر
ليلى : جمعتنا فأحسنت	ساعة تفضل العمر
قيس : أتجدين ؟	ليلى : مافؤادى حديد ولاحجر
ليلى : لك قلب فسله	ياقيس ينبئك بالخبر
قيس : قد تحملت فى الهوى	فوق مايحمل البشر
ليلى : نبئنى قيس ماالذى	لك فى البيد من وطر
أترى قد نسيتنا	وعشقت المها الأخر
قيس : غِرْتِ ليلى من المها	والمها منك لم تغر

هذا الحوار المتقد بحرارة الحب العذرى ، تكاد شرارته تتصل بقلب كل مستمع له ، فى غناء يحمل الآذان والجوارح إلى دنيا ذلك الموقف العذرى العفيف .

وهذان المشهدان من المشاهد العديدة التى زخرت بها المسرحيتان يظهران بالبرهان الحى المرئى والمسموع ، قدرة شوقى الخارقة فى النظم المسرحى الذى كان مسرحنا العربى فى حاجة إليه وفى ظمأ إلى نظمه العذب النمير .

* * *

والذى أود أن أصل إليه وأنا بسبيل كشف الغطاء عن مكنونات شعر شوقى

فى كل باب طرقه ، كان ذلك فى الشئون السياسية ، أو الوطنيات أو المآسى أو الإخوانيات أو المراثى أو الأغانى ، أو المسرحيات أو المداعبات التى تثير ضحك حتى من قيلت فيه ، أقول : إن ما أود أن أصل إليه من وراء ذلك كله ، هو تفرد شوقى الشاعر الإنسان ، الذى كانت الإنسانية تتسلل وتترقرق فى كل أغراض الشعر التى تناولها بذهن وقاد ونظم لا يجاريه فيه شاعر فى أى عصر من العصور ، وكانت أداته الشعرية خير عون له فى الوصول إلى القلوب والسرائر. وهذه الوظيفة فى النظم تختلف عن وظيفة النثر ، بما تحمله فى ثناياها من موسيقى وإيقاعات وجرس وإثارة ، تشعل الانفعال ، وهو بهذا النظم الإنسانى فى مختلف المجالات ، قد بلغ أعلى الذرى ، على وسادة مخملية لها حفيف ولها نغم ولها كل ما يبعث على العجب والإعجاب .

* * *

ومن المواقف الإنسانية البارزة ، تلك التى ساقتها الأقدار فى أحكامها الجازمة ، لتضع أمير الشعراء فى موقف يتعين عليه فيه أن يتخذ قرارًا يتوسط العاطفة والحنان ، والواجب والواقع .

فى عام ١٩٢٧ كان الموسيقار محمد عبد الوهاب يصطاف مع أمير الشعراء فى جبل لبنان ، وفى بلدة زحلة التى كان يؤثرها وتهفو نفسه إليها . وفى أحد أيام شهر يولية من هذا العام ، وردت برقية لعبد الوهاب من شقيقه الأكبر الشيخ حسن عبد الوهاب ينعى له فيها والدهما .

وكان عبد الوهاب قد اتفق قبل ذلك بعدة أيام مع متعهد ممن يقيمون حفلات الشهر لإقامة حفل أعد له العدة وأراد أن يكون تاجاً لكل حفلات

الطرب والسمر ، حيث سيكون صداح الحفل هو الموسيقار محمد عبد الوهاب ، كما سيتيح بذلك لعشاق فنه من الدول العربية المجاورة ومن أهالى لبنان . أن يروه ويسمعوه فى وقت سبق السينما العربية والإذاعة والتليفزيون والتسجيلات .

وتم طبع الإعلانات والتذاكر التى أقبل عليها الراغبون المتشوقون لهذه الفرصة إقبالا فريداً ، وقد وافق موعد هذا الحفل الساهر ، يوم وصول برقية شقيق عبد الوهاب الذى نعى إليه فيها والده . أى ، « فرح هنا وهناك قام المأتم » .

أطلع عبد الوهاب أمير الشعراء على البرقية ، ونقل إليه عزمه على السفر إلى القاهرة ، ولم تكن الطائرات آنذاك تنقل الركاب والمسافرين بل كانت مقصورة على الحرب . ومعنى ذلك أنه سيصل عن طريق البحر فى يومين على الأقل هذا إن وجد مكاناً ، وكانت هناك باخرة ستبحر فى هذا اليوم .

وجد شوقى أن عبد الوهاب بين عاطفة البنوة الوفية . والواجب الذى يزعزع الثقة بالفنان إذا هو أخل بما تعاقد عليه . فى موقف يستحق التدبير والفكر .

وقال له بعد عزائه إن الأمر بجملته مرجعه إليك ، ولا بأس من أن تسافر كما قررت ، ولكن كنت قد وعدت الدكتور طه حسين أن نقوم بزيارته اليوم ، رداً على زيارته لنا عندما وصلنا من مصر ، وطابت نفسه عندما علم أنك ستكون مصاحبى فى هذه الزيارة لبلدة (بكفيا) حيث يصطاف الدكتور قبل سفره إلى أوربا . فلا أقل من أن نقوم بهذا الواجب قبل رحيلك .

وافق عبد الوهاب ولم يبد أى اعتراض ، واستقلا سيارة إلى (بكفيا) ولما ضمهم مجلس عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، بادر شوقى بإبلاغ الدكتور طه حسين مصاب عبد الوهاب ، فقام الدكتور طه حسين بتقديم عزائه ومواساته ولما جاء ذكر عزمه على السفر برغم ارتباطه الذى كان قد علم به دكتور طه حسين وأنه بسفره سوف يتخلف عنه ، بعد أن تم كل الإعداد لهذا الحفل الكبير ، الذى ينتظره عشاق فنه ، قال له وهو يستمد من حكمة الإغريق ، المنطق والحجة والأمر الواقع والإقناع ، مما يتلخص فى هذا المشهد الحوارى ، بمبناه قبل معناه :

دكتور طه حسين : يا محمد يا ابنى ، ما حدث كان لابد أن يحدث ، وهذا قدرنا ولن يعوضك سفرك شيئاً من فقد والدك الكريم ، فأنت ستصل بعد أن تكون مراسم تشييع الجنازة وما يتبعها قد تمت ، وارتباطك هنا يلزمك كفنان أصيل أن يضع فى اعتباره ما له وما عليه ، والفنان أسير فنه . والأحداث تجرى إلى مستقر لها ولابد مما قدر أن يكون .

وهنا قال شوقى مخاطباً دكتور طه حسين : لعلك يا دكتور إذا رويت لمحمد ما حدث لعبده الحامولى يوم زواج ابنه محمود ، يقتنع بأن الفنان لا يقعد به أى حدث لأنه يتميز عن باقى ما خلق الله ، بما أودعه فيه من فن عليه دفع الضريبة عنه من أعصابه ومن احتماله ومن الرضا بأحكام القدر ، لأنه يحمل رسالة هو مكلف بأدائها .

فقال دكتور طه حسين ، إن موقف عبده الحامولى عند وفاة وحيده ليلة

عرسه ، يبدو بالنسبة لمصاب محمد شيئاً يعتصر القلب ويثير العجب فى قوة الاحتمال .

فقد كان عبده الحامولى يحتفل بزواج ابنه محمود فى يوم معلوم ، وقد أقيم حفل فى الدار للسيدات ، كما أقيم على مبعدة من الدار سرادق للرجال . وقد شاء عبده أن يسعد المحتفلين معه بزواج وحيده ، بليلة من ليالى العمر ، يغنى فيها دوراً كان يناسب هذه الفرحة واستعد التخت للعزف بعد أن ضبط إيقاعاته ، وكان الدور على ما أذكر :

يا وصل شرف يا جفا روح عنا خلى الحبايب بالحياة تتهنا

وقبل أن يبدأ الغناء ، جاء من الدار خادم أسر فى أذن عبده الحامولى بأن ابنه العريس محمود أصيب بهبوط مفاجئ فى القلب وتوفى فى الحال وهو جالس إلى جوار عروسه .

فطلب عبده من الخادم أن يعود ، وبأمر منه لصاحبة الدار ، بأن لا يرتفع صوت بالبكاء والنحيب من السيدات حتى ينفض الحفل المقام فى السرادق ، ثم طلب من أفراد التخت تعديل ما سبق الاتفاق عليه من مقامات موسيقية وأمده الله من وحى المأساة المباغتة بنظم بسيط ينم عن شعوره ووجدانه وكانت كلماته .

الصبر محمود لمثلى على حبيبى وبعده
والنار فى القلب ترعى والرب يلطف بعبده

ولدى ياكبدى يا نور العين   كبدى يا ولدى بياض العين

واسترسل فى هذا الغناء الحزين مع ترديده على مختلف الإيقاعات ، حتى أبكى الكثيرين ممن حضروا ولم يفهموا سر اختيار الحامولى فى ليلة عرس ولده هذا الكلام المبكى ، وبقى على هذا الحال حتى ساعة انصراف مدعويه ، ووقف عند باب السرادق وهو يشكرهم على حضورهم لمواساته فى موت ولده ، وبهذا زال عجبهم وراحوا يعزونه فى هذا المصاب الذى يهز أى قلب مهما اقتدر احتماله لمثل هذه الفجيعة ، وبكى منهم كثيرون .

ذكر دكتور طه حسين هذه القصة لمحمد عبد الوهاب ثم أردف قائلا ما مفاده ، إن الفنان هو الذى يواجه كل الأحداث مهما بلغت أحجامها ، ويتفاوت الفنانون فى ذلك على قدر مواهبهم ، وأنت ملء العين والسمع وانتشر صيتك بين المعجبين بك ، ولا أود لك أن يهتز قدرك عندهم إن تركتهم وسافرت .

والفنان كالربان الماهر الذى لا ينتظر أن يصادفه فى رحلته نسيم وريح رخاء ، بل لابد أن يحسب حساب العواطف والأنواء ، وعليك الآن أن تواجه بكل شجاعة وتضحية وإيمان ، ما وقع لك من مصاب أليم ، متخذاً فى الاعتبار ، وكأسوة لك ما صادف عبده الحامولى من مصاب وهو فى ذروة ساعات فرحه . ولن يفيدك سفرك شيئاً ، والحزن يكمن فى القلب والعبرة فى الأحزان بما هو مستور منها لا بما هو معلن .

ما زال دكتور طه حسين بعبد الوهاب حتى اقتنع وألغى فكرة سفره — ثم

عمد إلى أن يكتم الخبر عن متعهد الحفل وعن كل من كانوا حوله وعمن كان سيحضر الحفل ، خاصة وأن الصحف القاهرية كانت تصل بعد يومين من يوم صدورها حيث يتم تسليمها أولا فى بيروت ثم تنقل إلى مصايف الجبل بالسيارات .

واستأذن عبد الوهاب من أمير الشعراء فى أن ينظم له أغنية لكلماتها وقع يتفق مع هذا المصاب الذى ألم به ، حتى ينفعل بها وينتقل إحساسه إلى جمهور المستمعين ، وسرعان ما استجاب شوقى إلى رجاء عبد الوهاب الكسير القلب ، وراح ينظم أغنية ، عكف عبد الوهاب بعد أن استوعب معانيها إلى تلحينها تلحينًا يبعث النوح والشجى والطرب معًا .

وكان مطلع الأغنية :

الليل بدموعه جانى يا حمام نوح ويايه
نوح واشرح أشجانى ده جواك من جنس جوايه

* * *

أخفى عبد الوهاب كل أوجاعه وبدا طبيعيًا وجلس ليغنى مثلما هو معتاد ، دون أن يعلم أحد بما يخفيه بين جوانحه ، وتوفر له أن ينقل أحاسيسه الجريحة إلى المستمعين الذين طربوا طربًا شابه شىء كبير من الحيرة من أمر هذا الأسى الذى يتخلل غناء عبد الوهاب ، وهذا الوجوم الذى مهما استطاع أن يخفيه إلا أنه يفلت منه فى الحين بعد الحين ، حتى انتهت السهرة بين إعجاب وتعجب ، وإن كان الجمهور قد أسعده أن يرى وأن يسمع مطربه الأثير.

وكان دور أمير الشعراء فى هذه القصة ، دور الإنسان الذى يزخر قلبه ووجدانه بأسمى مشاعر المواساة وأرق وسائل الإرشاد والتوجيه لفنان يرعاه ويأمل له مستقبلا كان يرى تباشيره بعين بصيرة واعية ، وكان يخشى عليه أن تهتز مقاييسه وقدره عند محبيه إن هو تخلف عنهم .

* * *

كان شوقى فى مراثيه وفى إخوانياته بصورة عامة ، فريد زمانه بين الشعراء فى العالم العربى .

وكان إذا رثى راحلا ، يستجمع فى إنسانيته من أحاسيس نبيلة ومشاعر تتحسس مواقع الخسارة فى الفقيد الراحل ، وتروح تعدد مزاياه ومناقبه حتى لكأنه يحاول أن يرسم تمثالا للراحل بالنظم ليحل محل فقدانه ، بمماته ، وصفاته خلال الحياة .

اقرأه فى مرثيته للشيخ سلامة حجازى :

يا ثرى النيل فى نواحيك طير	كان دنيا وكان فرحة جيل
لم يزل ينزل الخمائل حتى	حل فى ربوة على سلسبيل
أقعد الروض فى الحياة مليًّا	وأقام الربى بسحر الهديل
ما لواء الغناء فى دولة الفـ	ـن إليك اتجهت بالإكليل
عبقريًّا كأنه زئبق الخلـ	ـد على فرعه السرى الأسيل
أين من مسمع الزمان أغانـ	ـى عليهن روعة التمثيل
أين صوت كأنه رنة البلبـ	ـل فى الناعم الوريف الظليل

فيه من نغمة المزامير معنى وعليه قداسة الترتيل
كلما رن فى المسارح « إن كنتُ » أنثنى بالهتاف والتهليل
كعتاب الحبيب فى أذن الصب وهمس النديم حول الشمول

ويقصد شوقى « بإن كنت » قصيدته فى رواية شهداء الغرام (إن كنت فى الجيش أدعى صاحب العلم) .

* * *

أما فى مداعباته وفى إخوانياته فهو نسيج وحده ، وهو المتميز برقة الحس وعذوبة الكلمة وظرف النكتة والمهذب من المجون الراق .

قال يعابث صديقه الشاعر خليل مطران ، الذى كان مقترًا عليه فى الرزق ، وقد بلغه أنه ربح ربحًا فى أوراق (يا نصيب) فبعث إليه بهذا النظم :

لقد وافتنى البشرى ونبئت بما سرا
وقالوا عنك فى أمس ربحت الثمرة الكبرى
فيا مطران ما أولى ويا مطران ما أحرى
لقد أقبلت الدنيا فلا تجزع على الأخرى
أخذت الصفر باليمنى وكان الصفر باليسرى
وكانت فضة بيضا فصارت ذهبًا صفرا
وقال البعض ألفين وقالوا فوق ذا قدرا

* * *

وانظر إلى إنسانيته وأبوته العارمة ، عندما وصف تشبث طفليه على وحسين به عند خروجه ليمنعاه من الخروج :

بكيا لأجل خروجه فى زورة ياليت شعرى كيف يوم فراقه
لو كان يسمع يوم ذاك بكاهما ردت إليه الروح من إشفاقه

* * *

وله فى مجال المجون المهذب الفريد ، أسلوب لم يسبقه إليه شاعر. إنه يرتقى ، حتى فى هذه المداعبات التى كان ينظمها ، إلى مستوى الشعر الجاد الملتزم بكل خصائصه ولزومياته ، ويبدع فيه ما شاء الله له الإبداع كأنما هو ينظم فى أنبل غاية وأهم قصد ، وتلك صفة تلازم العباقرة الذين لا يستطيعون حتى وإن أرادوا ، أن يتخلوا عن بعض التزاماتهم التى تقيدوا بها وانقادوا لها .

حدث خلال زيارة له لإستنبول ، فى عهد السلطان عبد الحميد ، أن لاحظ ما كان عليه (كوبرى جلطه) الذى يربط إستانبول القديمة وإستانبول الحديثة ، من وهن لحقه من فرط ما يحمله من كافة أنواع المواصلات ، فوق السنين العديدة التى قصمت ظهره ، وصار يئن من وقعها ، دون ما اهتمام من المسئول عن هذا الشريان الحيوى وإدخال ما يطمئن النفوس العابرة فوقه ، خاصة أنه كان الكوبرى الوحيد القائم ، وليس هناك من طريق للعبور سواه ، فما كان من شوقى إلا أن نظم قصيدة وجه القول فيها للسلطان عبد الحميد جاء فيها :

أمير المؤمنين رأيت جسرًا أمر على الصراط ولا عليه

له خشب يجوع السوس فيه ... وتمضى الفأر لا تأوى إليه
ولا يتكلف المنشار فيه ... سوى مر الفطيم بساعديه
ويمشى (الصدر) فيه كل يوم ... بموكبه السنى وحارسيه
ولكن لا يمر عليه إلا ... كما مرت يداه بعارضيه
ومن عجب هو الجسر المعلى ... على البوسفور يجمع شاطئيه

أى أن رئيس الوزراء (الصدر الأعظم) يمر عليه ولا يلقى بالا لما وصل إليه الحال .

ومن مداعباته أيضًا ما كان يجرى بينه وبين الدكتور محجوب ثابت الذى كان من جلسائه ومن المقربين إليه وممن يرتاح إلى مجلسه الذى يحتشد بكل أنواع الأحاديث من سياسة إلى اقتصاد إلى أدب إلى تاريخ .

وكان للدكتور محجوب ثابت عربة يجرها حصان هزيل ، يمر بها على أحياء القاهرة أيام ثورة ١٩١٩ . وكان أصدقاء الدكتور قد أطلقوا على حصانه تندرًا ، اسم (مكسويني) وهو اسم بطل أيرلندى مشهور انتحر بالانقطاع عن الطعام حتى مات جوعًا ، فى سبيل تحرير وطنه .

وحدث أن استبدل دكتور محجوب عربته هذه بسيارة ماركة (أوفرلاند) الأمر الذى أوحى إلى شوقى بقصيدة يداعب فيها صديقه محجوب ، ويحاول أن يحمل العزاء للحصان الوفى باكيًا على ضياع الوفاء فى الناس وفى هذه القصيدة قال شوقى :

لكم فى الخط سياره ... حديث الجار والجاره

إذا حركتها مالت على الجنبين منهاره
وقد تحزن أحيانًا وتمشى وحدها تاره
ولا تشبعها عين من البنزين فواره
ولا تروى من الزيت وإن عامت به الفاره
ترى الشارع فى ذعر إذا لاحت من الحاره
وصبيانًا يضجون كما يلقون طياره
وفى مقدمها بوق وفى المؤخر زماره
فقد تمشى متى شاءت وقد ترجع مختاره
قضى الله على السوا ق أن يجعلها داره

* * *

أدنيا الخيل يا (مكسى) كدنيا الناس غداره
لقد بدلك الدهر من الإقبال إدباره
فصبرًا يافتى الخيل فنفس الحر صباره

وكان شوقى من المقدرين للدكتور محجوب مواقفه الوطنية وعطفه على الفقراء حيث لم يكن يعالجهم بأى أجر.

* * *

هذه لمحات عن نفس شاعر إنسان ، لم يكن يرى الناس ناسًا ، بل أرواحًا تطوى صدورها على الخير والمحبة والإنسانية ، ولم يكن يرى الأشجار أشجاراً ، بل عرائس وراقصات تكشف عن نحورهن ويسترن سيقانهن ولم يكن يرى

الأحجار أحجاراً ، بل كان يراها مخلوقات تسرى بين جنوبها نسمات الحياة وخصائص الإنسان فى فرح يهش له ، أو جرح يخشاه ، كما رأيناه وهو يصف الساقية التى طال أنينها حتى لم يبق منها إلا الضلوع من فرط نحولها ، أو وهو يصف بقايا قصر أنس الوجود ، أو وهو يصف أشجار الحور الكاسيات العاريات كراقصات الليل فى لباسهن الذى يخفى ما يشاء ويظهر ما يريد أو ما يريده المشاهدون .

كان شوقى فى كل ما ينظم إنساناً يحب الإنسانية ، على أى حال كانت عليه ، فهو يخف إلى التهنئة فى موضعها ، ويهرع إلى الرثاء فى حينه ، ويمسح عن اليتيم عبراته ، ويكفكف دموع الشعوب المظلومة المقهورة ، التى يطلب لها التحرر والسيادة ، بعد قهر واستبداد .

ولم تكن تكفيه ظواهر الأشياء ، ولا يقف عند البادى من الأمور ، بل نجده يتغلغل فى حشايا النفس البشرية ، يستخلص منها ما تطوى عليه الصدور ، ليدفع بصاحبها الإنسان ، إلى ما يجب أن يكون عليه الإنسان ، كما أراده الله أن يكون .

ونكتفى اليوم بهذا القدر ، لنستكمل فى الأسبوع القادم وفى نفس المكان والزمان ، ما لم نتطرق إليه من جوانب شوقى الإنسانية فى هذه المحاضرة .

* * *

المنظر الثانى :

يجلس المحاضر وأمامه المنصة التى تحمل أوراق محاضرته ، ويروح يجيل النظر فى جمهور الوافدين . محيياً بهزة مهذبة من رأسه . وقد سرت فى أساريره أمارات الارتياح لكثرة عدد المترددين ، الذين ربما حثهم على الحضور ما سمعوه عن المحاضرة السابقة ، فشاءوا أن يلحقوا بما تبقى من هذا الموضوع الشيق المؤنس . .

سادتى : نستكمل ما بدأناه من تحليل وعرض وسرد ، لما ضمته نفس الشاعر الإنسان أحمد شوقى من مشاعر وأحاسيس ، تنبع بغزارة من إنسانيته التى تسرى فى جوانبه سريان الهواء فى كل مكان .

وقد رأيت فى هذا الجزء الثانى من المحاضرة ، أن أقسمه إلى أبواب ثمانية ، أرجو أن أكون قد وفقت فى جمعها . لتشمل كل ما أحاط بشوقى من أحداث . أو ما جاشت به نفسه من مشاعر رقيقة دفاقة مشجية .

الباب الأول

شوقى الإنسان فى مديحه ورثائه

برغم ما بلغه شوقى من رفعة شأن فى باب الشعر الذى حمل معظم شعراء عصره على سبايعته أميرًا عليهم ، فإن أقلاماً كثيرة كانت تناوشه وترتقب له سقطة هنا أو هفوة هناك ، لتشرع أسلحتها الحادة فى سبيل الانتقاص والتعريض لهذا الصرح الشامخ الفريد .

وشوقى برغم كل ما آتاه الله من عبقرية فذة . رفعته على من سبقه وعلى من أتى من بعده من الشعراء فإنه كان يتأذى غاية الأذى من نقد شعره .

وليته كان يغمض عينيه عن ذلك . فإن من شأن النفوس الحاقدة أن تنفس على من حباه الله بكل هذه النعم . ويتعالى عن أن يدخل معها فى سجال أو جدال .

وكان شوقى يضيق وينفد صبره فمن كانوا يعيبون عليه كثرة رثائه أومديحه أو تهانئه . وكيف يصح فى الأذهان . أن شخصية فى مثل مقام شوقى . عاصرت وعايشت وصادقت الملوك والقادة وذوى الجاه والمفكرين والكتاب والمخترعين والشعراء والعظماء فى كل فن ، ممن اختصهم الله بقدرات تميزهم على سائر

البشر ، أن يسكت إن صادف أحدهم نجاح يستأهل التهنئة ، أو ألم بأحدهم مكروه يتزعج من أجله قلب شوقى الرهيف ، نقول كيف يسكت عن النظم مهنئاً أو مواسياً أو مادحاً عملا جليلا نبيلا ، عندما ينتهى إلى علمه أنباء هؤلاء ممن أحبهم من عشرائه ومن اختصهم بحبه ، إذا ما حرمه الزمن من رقيق وفائهم ورقيق معشرهم إذا ما فارقوا الحياة ، إن سكوته عن ذلك هو العجب وهو العقوق الذى يستحق أن يؤاخذ عليه ، وأن يكون موضع النقد والتجريح ، لا أن يكون موضعاً للطعن والانتقاص نقول ، كان كثير من النقاد ، يتلمسون مثل هذه التهانى أو الرثاء ليبدأوا هجومهم . وكان شوقى يضيق ذرعاً بمن يعيبون عليه كثرة رثائه وتهانئه وكان من حقه أن يتبرم ويتذمر من هؤلاء الذين لم يرضوا عنه إن هو رثى أو يرتضوا قيامه بتهنئة أو مديح .

وكان فى هذا الموضع ، ينطق بحكمة الفلاسفة ، ومنطق المناطقة ، عندما يقول ، إنه إذا كان يعاب على مديحه للعظماء ، ارتقاباً لرفدهم ، وتزلفاً لجاههم عسى أن يلحقه من وراء ذلك نفع أو فائدة ، فما الذى يناله ممن ارتحل وترك الدنيا وما فيها ومن عليها . ثم يردف ذلك بقوله : إن من لا يفى للموتى ، لا يفى للأحياء . ثم ينظم شعراً فى الرد عليهم ، منه :

يقولون يرثى الراحلين فويحهم ... أأملت عند الراحلين الجوازيا
أبوا حسداً أن أجعل الحى أسوة ... لهم ومثالا قد يصادف حاذيا

ولكنهم عادوا من طريق آخر يقولون ، عندما رثى سعيد زغلول ابن أخت الزعيم سعد زغلول ، إنه إنما رثاه تملقاً وزلفى لسعد . ولكنه لم يسكت على هذه الفرية والاتهام الجديد ، لأنه كان يصدر فى ذلك عن حب وتقدير وتأييد للزعيم

سعد زغلول ، ودفعه هذا النقد الذى جانب الحق والذوق والعدل إلى أن يقول فى قصيدة يرد على شانئيه بقوله :

وأنا المرء لم أر الحق إلا كنت من حزبه ومن عماله
رب حرٍّ صنعت فيه ثناء عجز الناطقون عن تمثاله

وكانت تهانى ومراثى شوقى ، لا تخلو من الحكمة ومن الموعظة ومن الوفاء ومن البلاغة ومن الرقة النابعة من شعور فياض بالمحبة والتقدير والتقديس للموت الذى هو آية الله العزيز الحكيم الذى لا غالب له .

كان من أحبائه ومن جلسائه المخلصين ومن أهل الأدب والفن والتعمق فى فن الموسيقى والغناء ، المرحوم حسن بك أنور ، أحد الأعضاء المؤسسين لنادى الموسيقى الشرقى . وقد توفى عام ١٩٣٠ . وكان متخصصًا فى الموشحات والتراث .

حزن عليه شوقى حزناً بارحاً ، فقد كان سميره وأنيسه وجليسه . ولما بلغه نبأ وفاته كان حزنه عليه حزناً مشوباً بالحسرة على ذهاب أمثاله ممن يرجى على يديهم الخير والنفع .

وقال فى رثائه :

تسائلنى (كرمتى)[١] بالنهار وبالليل : أين سميرى (حسين) ؟
وأين النديم الشهى الحديث وأين الطروب اللطيف الأذن

(١) (كرمتى) يقصد بها داره التى أطلق عليها اسم (كرمة ابن هانئ) .

نجى البلابل فى عشها وملهمها صبية فى الفن
فقلت لها مات واستشعرت ليالى السرور عليه الحزن
ومـا هـو مـيت ولـكنه بشاشة دهر محاها الزمن
ومعنى خلا القول من لفظه وحلم تطاير عنه الوسن

* * *

وعندما بلغه نبأ رحيل الزعيم سعد زغلول ، عام ١٩٢٧ وفى شهر أغسطس من ذلك العام ، كان شوقى رحمه الله يصطاف فى (زحلة) بجبل لبنان وهى التى نظم فيها قصيدة « يا جارة الوادى » التى شدا بها الموسيقار محمد عبد الوهاب .

وكان سعد رحمه الله يعانى من مرض الحمرة ، وكانت وفاته متوقعة ، وكان المصطافون فى هذه المدينة ، وكنت وعائلتى من بينهم ، ننتظر صحف مصر التى تصل فى اليوم التالى من صدورها . ولم تكن هناك من إذاعة أو تيلكس ، وفى اليوم الذى حدثت فيه الوفاة ، كنا وجوماً وكان شوقى يذرع (تيراس) الفندق فى عصبية ، حيث كان قد علم من أحد القادمين من مصر ضعف الأمل فى شفاء سعد ، وانتشر الخبر بيننا ، وفى اليوم التالى وردت الصحف وفيها النبأ الأليم ولم تمض أيام حتى بعث شوقى إلى صحيفة الأهرام برثاء سعد فى قصيدة تعد من درر ما نظم فى الرثاء ، كان مطلعها :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاها
ليتنى فى الركب لما أفلت (يوشع) همت فنادى فثناها
جلل الصبح سواداً يومها فكأن الأرض لم تخلع دجاها

ثم يمضى ليقول :

سائلوا (زحلة) من أعراسها[1] هل مشى الناعى عليها فمحاها

عطل المصطاف من سماره وجلا عن ضفة الوادى دماها

فتح الأبواب ليلا (ديرها) وإلى (الناقوس) قامت بيعتاها

يحمل الأنباء تسرى موهناً كعوادى الثكل فى حر سراها

عرض الشك لها فاضطربت تطأ الآذان همساً والشفاها

قلت يا قوم اجمعوا أحلامكم كل نفس فى وريديها[2] رداها

(١) عرائسها .

(٢) أى فى شريانيها .

الباب الثانى

شوق الإنسان فى شوامخه الدينية

إن من يتمعن فى شعر شوقى فى النبويات أو المناسبات الدينية المنبثة فى أجزاء الشوقيات ، يلمس أول ما يلمس شعراً علوياً نابضًا بالإيمان العميق ، ونظمًا نابعًا من نفس قد تجردت من مباهج الحياة . واتجهت بكل أحاسيسها إلى ما وقف نفسه على الاسترسال فيه كروح ترف فى شفافية ونقاء وصفاء حول ما هو بسبيله من نظم فى شأن الدعوة لقداسة الأديان وطهارة طريقها السوى .

لقد نظم فى النبويات قصائد ثلاث هى : « سلوا قلبى ، وريم على القاع ، وولد الهدى » بخلاف ما أشاد فيه بنظمه ، بالرسائل السماوية جميعاً .

شدت الراحلة الكريمة السيدة أم كلثوم بالنبويات ، بعد أن قام بتلحينها تلحيناً كتب لها الخلود ، الموسيقار رياض السنباطى ، بحيث أصبحت ، برغم ما احتوت عليه من ألفاظ لا يرقى إلى فهم معانيها ، إلا من نال قسطاً من الثقافة الشعرية والدينية ، فإن سلاسة النظم وموسيقى النظم وعذوبة الأداء الصادق الخاشع ، قد أعانت كل من استمع إليها على التغلغل فيما حوته وضمته من معان علوية قدسية ، رفيعة البناء ، جليلة المعنى . وكان المستمع من فرط انجذابه

للإحاطة بكل معنى شد حواسه ، ومضى لمن يأنس فيهم المعرفة ، ليقف منهم على ما دق على فهمه من معان ومقاصد ، ليزداد استمتاعاً بما أطربه وشجاه .

تعالوا نقف عند أبيات من قصيدة (ذكرى المولد) التى كان مطلعها :

سلوا قلبى غداة سلا وتابا   لعل على الجمال له عتابا

فقد سلك فيها شوقى مسلك قدامى الشعراء العرب الذين كانوا يبدأون قصائدهم بالنسيب المصطنع ، ثم يدلفون إلى موضوع قصائدهم ، غير أن شوقى فى هذه القصيدة ، شأنه فى غيرها مما نظمه فى المناسبات الدينية ، يبدأ بنسيب يلذ للأذن الإنصات له ، ويطيب للنفس التغنى به من فرط ما حواه من غزل شف ورق وسما سموًّا يتناسب وما سوف يتلوه من مقاصد دينية انبرى للكشف عنها :

ولى بين الضلوع دم ولحم   هما الواهى الذى ثكل الشبابا
تسرب فى الدموع فقلت ولَّى   وصفق فى الضلوع فقلت ثابا
ولو خلقت قلوب من حديد   لما حملت كما حمل العذابا

ثم انظروه وهو يقول قول الحكماء :

وكان بساط عيش سوف يطوى   وإن طال الزمان به وطابا
كأن القلب بعدهمو غريب   إذا عادته ذكرى الأهل ذابا
ولا ينبيك عن خلق الليالى   كمن فقد الأحبة والصحابا

فى هذا البيت الأخير لفتة إنسانية ، لا تصدر إلا عمن امتلأ قلبه بالأسى

والشجى والوفاء ، وعرف غدر الزمان والأيام ، وفاض به الإيمان بما قسمه له الله فهذه مشيئته ، ثم يمضى ليقول :

وأرسل عائلا منكم يتيما دنا من ذى الجلال فكان قابا
نبى البر بيّنه سبيلا وسن خلاله وهدى الشعابا
وكان بيانه للهدى سبلا وكانت خيله للحق غابا
وعلّمنا بناء المجد حتّى أخذنا إمرة الأرض اغتصابا
وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا
وما استعصى على قوم منال إذا الإقدام كان لهم ركابا

أقول ، إن من يمعن الفكر فى محتوى هذا النظم من بدايته إلى منتهاه ، يلتقى بإنسان تفيض روحه بمحبة الإنسانية ومحبة البشر والحث على طلب المعالى بكل ما أتاحه الله للإنسان من قوة وإقدام .

ونتنقل للهمزية النبوية التى يقول فى مطلعها :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

إنه يصف ما واكب الميلاد من مظاهر قدسية علوية ، ثم يحيط بصاحب الرسالة شارحاً ما انطوى عليه من خلق وسمو أهلاه عند الله ليكون رسوله وآخر رسله للبشر :

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل يغرى بهن ويولع الكرماء

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادراً ومقدراً لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته فجميع عهدك ذمة ووفاء

وثمة أمر آخر فى نظم شوقى فى مناسباته الدينية ، يشف عن فهم عميق لمرامى الدين الحنيف ، وقياسه بمقاييس العصر ومناهج الحضارة ومذاهبها ، وما حملته من أسماء ومسميات تستلزمها المعاصرة ، فيذهب فى ذلك إلى قوله :

بك يا ابن عبد الله قامت سمحة بالحق من ملل الهدى غراء
بنيت على التوحيد وهى حقيقة نادى بها سقراط والقدماء
ومشى على وجه الزمان بنورها كهان وادى النيل والعرفاء

إلى أن يقول :

داء الجماعة من أرسطاليس لم يوصف له ، حتى أتيت دواء
فرسمت بعدك للعباد حكومة لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء
الاشتراكيون أنت إمامهم لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة لا منة ممنونة وجباء

جاءت فوحدت الزكاة سبيله حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة سواء

* * *

ما نظن أن شاعرًا ممن سبق شوقى ، كما لا نزعم أن شاعرًا ممن سيأتى من بعده . يستطيع أن يلم بحقائق ودقائق الدين العلوى الشريف بمثل هذه الإلمامة العصرية التى طرحها لتفترش حقبة منذ عهد أرسطاليس حتى ظهرت الاشتراكية بمدلولاتها وأهدافها المتباينة ، التى يتباهى بها المفكرون فى هذا الزمان ، بدعوى نصرة الضعفاء وأخذ حقهم من الأقوياء ، والانتصاف للفقراء من الأغنياء .

ولكن شوقى فى تفسيره لما أنزله من آيات فى هذا الشأن ، حفظ على الفقراء كرامتهم ، وساوى بينهم وبين الأغنياء ، الذين نبههم إلى أنهم لا يمنحون تكرماً وإحساناً ، ولكن للفقير والسائل والمحروم حق فى مالهم . وهذه رسالة إنسانية تعلو على كل المذاهب الاجتماعية التى أتى بها العصر الجديد ، للسيطرة على الشعوب من خلال مظهر خلاب براق ، ينادى بالتساوى ، وإزالة الفوارق بين الناس ، وجوهر صارم يستمتع فى ظله أصحاب هذه المبادئ .

* * *

ومثال آخر لشوقى فى نهج البردة التى بدأها بقوله :

ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمى فى الأشهر الحرم

فهو كما سبق وشرحنا ، التزم فيها بما كان يذهب إليه قدماء شعراء العرب من غزل ونسيب ولكن شوقى عندما نحا هذا المنحى ، قال :

يا لائمى فى هواه والهوى قدر | لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم
لقد أنلتك أذناً غير واعية | ورب منتصِت والقلب فى صمم
يا ناعس الطرف لاذقت الهوى أبداً | أسهرت مضناك فى حفظ الهوى فنم

هنا نستمع إلى غزل رقيق شفيف عفيف ، جرى فيه من حيث المظهر مجرى السلف ، ولكنه يزهم فى العرض والموسيقى والرقة العاطفية التى يظن قارئ هذه الأبيات أنه إنما انقطع لشعر غزلى تعرض قائله لموقف عاطفى أنطقه بهذه الطلاوة والرقة . حتى ليرق له قلب المستمع الإنسان ، لشاعر إنسان .

ولم تخل القصيدة من الحكمة ، وهو شاعر الحكمة العميقة الغور ، التى تجدها فى مكانها ، من غير أن يقحمها أو يفرضها ، ولكنك تجدها فى مسارها ومجراها كأنها قد صيغت من قبل صياغته ما صاغ ، لتكون فى هذا الوضع الذى قرأتها فيه انظروه وهو يقول :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه | فقوم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من خيرها فى خير عافية | والنفس من شرها فى مرتع وخم

وفى ذلة المرتجى غفران ربه يقول :

إن جل ذنبى عن الغفران لى أمل | فى الله يجعلنى فى خير معتصم
إذا خفضت جناح الذل أسأله | عز الشفاعة لم أسأل سوى أمم
وإن تقدم ذو تقوى بصالحة | قدمت بين يديه عبرة الندم

هذه لمحات لا تصدر إلا عمن امتلأ قلبه خشية لله ، لأنه إنسان يعتز بخالقه

المبدع لكل شيء ، ويتشرف بالتذلل له وسؤاله العفو والمغفرة ، فهو من خلقه ومن صنعه الذى نفخ فيه من روحه فصار إنساناً ، ثم يختتم ختاماً بالغ الروعة ، باهر السناء عندما يدعو ربه بقوله :

يا رب هبت شعوب من منيّتها	واستيقظت أمم من رقدة العدم
رأى قضاؤك فينا رأى حكمته	أكرم بوجهك من قاض ومنتقم
فالطف لأجل رسول العالمين بنا	ولا تزد قومه خسفاً ولا تسم
يا رب أحسنت بدء المسلمين به	فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

من أين لنا بشفيع يقف مثل هذا الموقف الإنسانى النبيل ، الذى يلتمس لأمة محمد ، ما بلغته أمم أخرى كانت تحبو عندما انتشر الدين وعنت لعدله وإنسانيته عتاة الحكام ، إلى أن بلغ الهوان بالأمة الإسلامية مبلغاً جعلها مطمعاً لكل طامع ، فاستجار بالله لينقذ أمة محمد مما فعلوا بأنفسهم من تركهم تعاليم دينهم وانصرافهم إلى متاع دنياهم .

* * *

فى ثنايا نظم شوقى فى نبوياته وإسلامياته الكثيرة العديدة المنبثة فى كل ما نظم فى هذا الشأن ، نلمح نفحة علوية ، ونلمس روحًا شفيفة طاهرة نقية ، تتحدث كما لو كانت من وراء حجاب طهور ، من فرط تجردها وتهجدها ، لتبعث فى جوانب المستمع خشية وخشوعًا ، منذ أن فاضت بالحكمة والموعظة الحسنة ، وطلب الاستغفار للمخطئ والتماس العفو لمن ضلت نفسه عن حقيقة الدين وتعلقت بضلال الدنيا .

وعندما كان شوقى يشيد فى نظمه بالخلافة الإسلامية ، فى مواقف عديدة ، لم تكن تخلو كثيرًا من النقد البناء ، إنما كان يفعل ذلك لأنها خلافة المسلمين كافة ، وموضع عزتهم وفخارهم ، لا لأنه كان ينحدر من أصل عثمانى كما اتهمه بذلك شانئوه ، ولكن لأنه مسلم يعتز بخلافة قوية عادلة حازمة ، بعد أن اتسعت رقعتها حتى بلغت أقصى الغرب وأواسط أوربا وجانباً كبيراً من روسيا ، إلى أن دب فيها فساد الحكام وأمرضها التخمة وأصبحت عليلة يطمع فيها كل قوى قادر .

وعندما قاد مصطفى كمال جيوشه المظفرة لطرد المحتلين من يونان وإنجليز وفرنسيين لمواقع عديدة من تركيا ذاتها ، حتى دانت له وكتب الله له النصر تلو النصر ، كبر شوقى وهلل ، وهو الذى كان يرقب ما يجرى بعين واعية وقلب كليم ، حتى جاء نصر الله والحق . وبادر بنظم قصيدته .

الله أكبر كم للفتح من عجب   ياخالد الترك جدد خالد العرب

* * *

وليس يكفى للمسلم أن يلتزم بفرائض الإسلام الخمسة ، لكن عليه أن يكون فى تعامله إنساناً ، يعتز بسجوده لله الخالق المبدع ، لشكره على نعمة وجوده كلما قام للصلاة ، ويلزم نفسه بالطاعة وتقويم شهوات النفس ، كما قام بالصيام ، ويحمد الله على نعمة عطائه ، كلما وصل محروماً وأمد سائلا بما يسأله ، لأنهم إخوة له ، ولو شاء الله لأعطاهم كل ما بين يديه من نعم ، وسلكه فى زمرتهم ، ولكن حكمة الله التى جعلت الناس بعضهم فوق بعض

درجات ، أمرت بالصدقة والتراحم .

والإنسان فى الشهادتين ، يشهد بوحدانية الله وبالصلاة على نبيه ، (إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) . ويشهد بأنه رسوله الذى بعثه بالحق والهدى ، والإنسان فى شهادتيه يصدر عن شعور وبصيرة بعظمة الخالق وخلق الرسول ، وهو إذا حج لبيت الله ومسجد رسوله ، إنما هو إلى جانب طاعته لأمر الله ، يلتمس التبرك والتعمق والعبرة عندما يطوف بهذه الأماكن المباركة التى قامت منها الدعوة ، ويلتقى بطوائف جاءت مثله من كل فج عميق فيتم التعارف الذى يعقبه تبادل فى المنافع .

وهو فى زيارته لمثوى النبى ومسجده الكريم ، إنما يسعى إلى خير غاية حيث يتنسم فى أرجاء المسجد عطر النبوة وشذى الرسالة ، ويستعيد مآثر النبى وجهاده فى نشر رسالته وما أصابه على يد المشركين ، وكيف كان سمحاً كريماً عندما غلبهم ، على قوتهم ، وجاءوا إليه أذلاء يسألونه ما هو صانع بهم ، وهو الكريم ابن الكريم ، فيقول لهم بكل تسامح الشريف العزيز :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

والدين فى يقين وقرارة نفس شوقى ، تهذيب وخلق ومحبة وتسامح ، ومبادلة للخير والنفع ، وخلود إلى الأخذ من الدنيا بما ينفع ، والصبر إذا ما غاب مطلوب ، فعلى منتظره أن يصبر حتى يلقاه على يد صاحب فضل أو صانع خير .

ولشوقى فى ذلك شعر حكيم ينم عن إنسانيته :

وإذا الدنيا خلت من خير وخلت من شاكر هانت هوانا

الباب الثالث

شوق الإنسان فى مواكبته الأحداث الكبرى

كانت نفس شوقى العظيمة ، بعيدة مدى الإحساس بكل ما يقع فى العالم فى عصره من أحداث تتأثر بها هذه النفس الشفيقة الحساسة ، التى كانت كالرادار ، ينطبع على صفحتها كل أثر لحادث ، وكل عاقبة لحدث طبيعى أو من فعل البشر فى أى مكان فى عالمه ، فهو كما سبق وقدمنا ، شاعر مصر والعرب والإسلام والإنسانية والعالم عندما تحل بموقع فيه مصيبة أو انقلاب على قديم ، تنكب الجادة السوية ، إلى جديد ينشد الصلاح والإصلاح ، بعد أن يكون قد درس بدقة المؤرخ الصادق ، والحكيم المتأمل ، والشاعر الذى تصفو نفسه صفاء تبدو على صفحته كل مؤثرات ، قد لا يتأثر بها غيره ، أو يمر بها كحدث لا دلالة له ، إذ لا عاقبة تتلوه .

وكان بوصفه شاعرًا نصب نفسه لتأريخ الأحدث العظام ، فإنه كان يرجع إلى ماضى العصور ويقرأ تاريخها وما يكون قد تركه على أهل ذلك العصر من قيم ، وما يكون قد بلغه من عظمة ظلت حيناً من الدهر ، حتى لحقتها طبيعة الأشياء ، من رفعة إلى خفض ، وهو ما كان يؤمن به العالم المحقق المؤرخ

(أرنولد توينبي) الذى أورد تاريخ إمبراطوريات عظيمة لعبت دورها وبثت عقائدها فيما حولها ، واتسعت رقعتها اتساعاً كان فى رأيه هو المؤذن بزوالها . ويضرب فى ذلك أمثالا بإمبراطورية الفرس والرومان وإمبراطورية آل عثمان والإمبراطورية البريطانية ومثلها الفرنسية ، وما كان من شأن البيئة وتنبه الأفكار وفعل الأحداث وتلاشى القدرة على الصمود مثلما يصنع امتداد العمر بالأجساد وتعرضها لأمراض الشيخوخة .

ذلك ما كان من أمر شوقى فى تبصره لصفحات التاريخ ، وارتقابه لما يجرى أو يقع من أحداث .

ونحن عندما نقف عند قصيدة (كبار الحوادث فى وادى النيل) يتحقق لنا ما عنيناه مما سلفت الإشارة إليه . فهو كإنسان رقت مشاعره حتى استوعبت من فرط حساسيتها تاريخاً منذ عهد ما قبل رمسيس ثم عهد الفراعنة ثم الفرس والروم واليونان والترك والجركس ثم العرب الذين استقروا بمصر وأعلوا شأنها حتى صارت كعبة العلم والحضارة .

يقول فى عصر سابق لعصر رمسيس :

ما الذى داخل الليالى منا فى صبانا ولليالى دهاء
فعلا الدهر فوق علياء فرعـ ـون وهمت بملكه الأرزاء
أعلنت أمرها الذئاب وكانوا فى ثياب الرعاة من قبل جاءوا
وإذا مصر شاة خير لراعى السـ ـوء تؤذَى فى نسلها وتساء

وكأنما كان يعز عليه برغم ما بين عصره والعصر الذى كان يوغل فى الكشف

عن سوءاته ، أن يرى مصر فى مثل هذا الظلام أيام ضعف بعض الأسر الفرعونية التى استأسد عليها ضعاف ممن حولها وسلبوا منها عزمها فراح يهتف كأنما قد لسعته نار موقدة :

لبثت مصر فى الظلام إلى أن قيل مات الصباح والأضواء
لم يكن ذاك من عمى كل عين حجب الليل ضوءها عمياء
ما تراها دعا الوفاء بنيها وأتاهم من القبور النداء
وأتى الدهر تائباً بعظيم من عظيم آباؤه عظماء
مَنْ كرمسيس فى الملوك حديثاً ولرمسيس الملوك فداء

إلى أن يقول :

جل رمسيس فطرة وتعالى شيمة أن يقوده السفهاء
وسما للعلا فنال مكاناً لم ينله الأمثال والنظراء
وجيوش ينهضن بالأرض ملكاً ولواء من تحته الأحياء
ووجود يساس والقول فيه ما يقول القضاة والحكماء
وبناء إلى بناء يود الخلـ ـد لو نال عمره والبقاء
وعلوم تحيى البلاد و(بنتا هور) فخر البلاد والشعراء
هكذا الدهر حالة ثم ضد ما لحال من الزمان بقاء

* * *

هذه الصور المتحركة المتلألئة بفيض من جواهر السؤدد والمجد فى عصر رمسيس بمصر ، ترينا كيف أن شوقى قد أوغل فى التاريخ القديم والحديث حتى

لكأنه متخصص فيه موكل به معتمد عليه .

وبنفس تحس العلياء وبحس إنسانى رقيق المظهر ، قوى المخبر ، جهير الصوت ، راح يصف ما نالته مصر فى عهد رمسيس من عز ومتعة وبناء تمنى الدهر لو نال بعض عمره وخلوده ..

ولم ينس أن يأتى على ذكر شاعر مصر (بنتاهور) الذى كان فخراً تعتز به مصر ، عرفاناً بفضله فى الإشادة بعظمتها وجلال مقامها بين الأمم .

ثم يأتى على ما كان من أمر الفرس ثم الإسكندر الأكبر المقدونى الذى قضى على حكم الفرس فى مصر وأنشأ مدينة الإسكندرية عندما افتتح مصر عام ٣٣٢ قبل الميلاد .

وتلا ذلك ما كان من أمر روما وقيصرها أنطونيوس وما كان من هيامه بكليوباترا هياماً حمل أوكتافيوس على غزو مصر وانتحارها بعد أن فشلت فى إغوائه ، ثم ما كان من انتحار أنطونيوس ، حبيبها الأول .

هذا القصص الشعرى الملىء بالمواقف التى تفيض بالحكمة ، وتتغنى بالعظمة وتأسى على من خذله حظه وتخلى عنه زمانه ، كلها تنبع من نفس ، إن لم تكن فياضة بالحب والإنسانية والحكمة واكتمال الرؤية لبصره وبصيرته ، لما جاءت بمثل هذه القدرة والغنى والثراء الفنى فى اللفظ والمعنى ، وفى النصح والتثريب ، وفى العبرة والتغنى بالمجد وما يتطلبه من علو همة ، وبعد شأو ، وجهد جهيد حتى تتحقق لطالبه بغيته ومتمناه .

وعندما وقعت مصر مشروع ٢٨ فبراير ، وكانت أغلبية المثقفين غير راضية عنه لأنه لم يحقق آمال الوطنيين ، أنشد قصيدة جاء فيها :

أعدت الراحة الكبرى لمن تعبا   وفاز بالحق من لم يأله طلبا
وما قضت مصر من كل لبانتها   حتى تجر ذيول الغبطة القشبا
لا تثبت العين شيئاً أو تحققه   إذا تحير فيها الدمع واضطربا

كناية إلى أن المشروع لم يكن واضح المعالم ، محققاً للمطالب ، ثم يمضى ليقول :

والصبح يظلم فى عينيك ناصعه   إذا سدلت عليه الشك والريبا
إذا طلبت عظيماً فاصبرن له   أو فاحشدن رماح الخط والقضبا
إن الرجال إذا ما ألجئوا لجأوا   إلى التعاون فيما جل أو حزنا

وهنا كان ينظر إلى اختلاف الآراء حول المشروع فقام يدعو إلى الاعتصام بالتعاون والقضاء على التفكك والتحزب والانقسام.

ويأخذه الإعجاب برسالة الهلال والصليب الأحمرين ، وتترقرق فى شعره فيها أمارات الإنسانية بما حملت من رحمة وعناية ورعاية نظم يقول :

(جبريل) أنت هدى السـ   ـماء وأنت برهان العناية
ابسط جناحيك اللذين هـ   ـما الطهارة والهداية
وزد (الهلال) من الكرامة   و(الصليب) من الرعاية
فهما لربك راية   والحرب للشيطان راية
لم يخلق الرحمن أكبر   منهما فى البر آية
الأحمران من الدم الغا   لى وحرمته كناية

الغـــاديـــان لـنـجــدة الرائحـــان إلى وقايــــة

إن رهافة حس شوق شرعت بيانها لتشيد بجهود المتطوعات والمتطوعين من الجمعيتين لإدراك أنبل غاية لجريح يتأوه أو يوشك على النهاية يلتمس الرعاية أو مصاب فى حرب أو فى سلم ، فإن جهود الجمعيتين لا حدود لها ، وإنما هما للجريح والمريض والعانى بلسم ويد ممدودة لإسعاف كل من شفه ألم أو ألم به عناء . . . هذه لفتة إنسانية من شوقى الإنسان .

* * *

الباب الرابع

شوق الإنسان فى الوصف

يختلف الشعراء فى نظرتهم إلى ما يشاهدون ، وتأثرهم بما يقع لهم أو لغيرهم كما يختلفون فى وسائل التعبير اللفظى والمعنوى . بل إن منهم من لايترك حدثا من الأحداث على نفسه إلا بقدر ما تتركه فراشة على براعم الأزهار . حيث تكون أذهانهم شاردة فى آفاق أخرى بعيدة عما يشاهدون . فيصرفهم هذا الانشغال عما يمر بهم أو يمرون به ، وكل فى فلك يسبحون .

والشاعر الإنسان شوقى ، تخترق بصيرته الحجب ، وتغوص إلى أعماق الأحداث لتصل إلى أسبابها وتربط مظهرها ومخبرها ، ولا تترك شاردة أو واردة إلا وأضفت عليها من شاعريتها ما يظهرها فى ثوب باهر اللألاء رقيق الحواشى ، فريد المعنى والمبنى .

بل إن شعر المناسبات الذى يعيب النقاد على ناظميه انصرافهم إليه ، لا يخلو من طرافة ورونق وطلاوة ومرح يقتلع الهم ويثير البهجة والأنس . فقد مدح المتنبى أميراً يدعى النجدى المتوكل ، فأهداه هذا الممدوح فرساً

توفيت فى اليوم التالى لإهدائها ، مما دعا المتنبى إلى أن يقول فيها موجهاً الخطاب للأمير :

أهـديـتنى أعـجوبـة هى فى العجائب نادره
فـرس كـأن هبوبه وشك الرياح الطائره
فى ليلة قطع المسافة من هـنـا للآخـره

* * *

وقد يمر شاعر فوق جسر البوسفور (جلطه) الذى يربط بين إستانبول القديمة وإستانبول الحديثة ، فلا يثير شعوره وخياله سوى فزع مؤقت من اهتزاز الكوبرى من فرط قدمه وتركه بلا إصلاح ، ثم يمضى إلى حال سبيله . وقد سبقت الإشارة إلى هذه القصيدة ولكننا هنا نذكرها بكل ملابساتها .

فالشاعر شوقى ، قد تجسدت أمام عينيه ، وملأت مشاعره أحاسيس ورؤى ألهمته قصيدة (جسر البوسفور) التى حوت فوق التهكم الطريف ، غمزة إلى ما وصل إليه الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) من سلطة وصولة صرفته عن أن يأمر بإصلاحات تبقى على هذا الجسر الوحيد الذى يربط بين إستانبول القديمة والحديثة ، كما يغمز فى قصيدته إلى ما بلغه السلطان عبد الحميد من قلة حيلة ، مثلما مر على المعتمد فى آخر أيام الدولة العباسية ، بعد أن استشرى سلطان المماليك حتى دعاه ذلك إلى أن يقول :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه

والمعتمد هو أبو المعتضد الذى تزوج من قطر الندى ابنه خمارويه سلطان مصر. فأراد شوقى فى لماحية تعز على سواه ، أن يأتى فى ختام قصيدته عن الجسر ، بهذين البيتين على لسان المعتمد ، وكأنهما يصفان حال الخليفة عبد الحميد فى نهاية حكمه الذى شاع فى أرجاء إمبراطوريته الفساد والتفكك نتيجة توزع السلطة بين معاونيه وتنافسهم وإصغائه لمستشارى السوء من حوله

وقد اهتم السلطان عبد الحميد بهذه القصيدة ، وطلبها وقرأها باهتمام .

وفيها يقول شوقى :

أمير المؤمنين رأيت جسراً ... أمر على الصراط. ولا عليه
له خشب يجوع السوس فيه ... وتمضى الفأر لا تأوى إليه
ولا يتكلف المنشار فيه ... سوى مر الفطيم بساعديه
وكم قد جاهد الحيوان فيه ... وخلف فى الهزيمة حافريه
وأسمج منه فى عينى (جباة) ... تراهم وسطه وبجانبيه
إذا لاقيت واحدهم تصدى ... كعفريت يشير براحتيه
ويمشى (الصدر) فيه كل يوم ... بموكبه السنى وحارسيه
ولكن لا يمر عليه إلا ... كما مرت يداه بعارضيه
ومن عجب هو الجسر المعلى ... على البوسفور يجمع شاطئيه
يفيد حكومة السلطان مالا ... ويعطيها الغنى من معدنيه
يجود العابرون عليه هذا ... بعشرته وذاك بعشرتيه
وغاية أمره أنا سمعنا ... لسان الحال ينشدنا لديه

« أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه »
« وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه »

* * *

ولعلكم تنظرون معى إلى مواقف شوقى من الأحداث الجارية ، ومبلغ همه واهتمامه بتسجيلها ووصف مبعثها وأثرها وخطر أمرها . إنه يصدر فى ذلك عن طبيعته الإنسانية ، وعن حدبه على كل أثر وذى أثر تكون يده هى الممدودة للأخذ بما يصلح أمره ويشيد بذكره وخيره .

كانت مصر ترزح منذ الاحتلال البريطانى والحماية التى فرضتها عام ١٩١٤ تحت وطأة الاستعمار العسكرى والاقتصادى .

وحدث أن قام فتية أحرار عزهم أن يروا وطنهم قد أحاطت به كل هذه المهانات والإذلال ، وشرعوا همتهم واستلوها من غمدها ، وتنادوا بإسقاط التواكل عن نفوسهم وتقدموا بمشروع مدروس مجهز للتنفيذ ، يستهدف إنشاء بنك مصر وما يستتبعه من شركات تستثمر أموال المصريين ويكون خيرها لبلدهم ولهم لا للغريب المستعمر .

وكان فى طليعة هؤلاء الوطنيين الأباة ، المغفور له طلعت حرب باشا الذى بنى مع أعوانه اقتصاد مصر الذى كان هو الدعامة للاستقلال والدعوة إلى التحرر ، وانتشرت شركات بنك مصر حتى بلغت العشرات ، وأغنت مصر والمصريين عن الاعتماد على مصنوعات الغرب .

هذه الوقفة من شوقى واكبت هذا العزم الحديد ، وأقيم فى دار الأوبرا حفل لهذه المناسبة ، ألقيت فيه قصيدة شوقى (بنك مصر) ، التى وصف فيها

ما كانت وما زالت تؤديه هذه المؤسسة من خير عم الوادى وأتى ثماره .

قف بالممالك وانظر دولة المال ... واذكر رجالا أدالوها بإجمال
وانقل ركاب القوافى فى جوانبها ... لا فى جوانب رسم المنزل البالى

ثم يمضى ليقول :

شراة مصر عهدنا كم إذا بسطت ... يد الدعاء سراعاً غير بخال
هانوا الرجال وهانوا المال واحتشدوا ... رأيا لرأى ومثقالاً لمثقال
هذا هو الحجر الدرى بينكمو ... فابنوا بناء قريش بيتها العالى
دار إذا نزلت فيه ودائعكم ... أودعتم الحب أرضاً ذات إغلال
آمال مصر إليها طالما طمحت ... هل تبخلون على مصر بآمال ؟
فابنوا على بركات الله واغتنموا ... ما هيأ الله من حظ وإقبال

* * *

وليس أبلغ من شعر تثيره فى النفس ذكريات حب لوطن حمل له فى قلبه وجوانحه ما لم يحمله له شاعر من قبل ، لقد عاب ناقدو شوقى عليه أنه موزع الانتماء ، فهو من أصل تركى جركسى يونانى عربى الموطن ، ولكنه ولد وولد أهله وأبناؤه على أرض هذا الوطن الذى أحبه حبًّا تلحظونه منبثًا فى معظم قصائد شعره ، إنه يسجل كل ما يحدث لهذا البلد من أحداث يقف إلى جانبها محذراً حيناً وناصحاً حيناً ، وفرحاً بما نال من عز أو آسياً إذا ما أصابه جرح يكون هو من أكثر المتألمين له الناأحين من وقع ألمه على نفسه ومشاعره . وعندما قامت الحرب العالمية الأولى ، وكان هو فى خدمة الخديو عباس

وشاعره ، رأت السلطة البريطانية المتحكمة آنذاك فى أقدار مصر ، أن تبعده عنها ، لأن هذه السلطة تعلم أن قصيدة من شعر شوقى تفعل أكثر مما تفعل القنابل والرصاص .

وقد قبل وهو يكتم فى نفسه حسرة مأتاها بُعْده عن مآلفه وظلاله وخلانه وأخدانه ، ورضخ لأمر القوة ، واختار إسبانيا مكاناً ينفى إليه ، وهو مكان كان للعرب فيه وما تزال آثار تنطق بعزهم ومجدهم التليد . ورحل مع عائلته حتى يقضى الله أمرًا .

واستقر به المقام ، وأخذ الحنين يزحف إلى نفس شاعر ملء جوانحه حس مرهف . عارم الشوق إذا أحب . حارق الأضلاع إذا توله فى حب من أحب . فكيف والشاعر شوقى الإنسان الذى تفيض جوانحه بالشوق إلى مصر والحنين إليها .

وهكذا نرى من هذه الملابسات ، كيف نظم أندلسيته ، وكيف كانت مشاعره نحو مصر ونيل مصر وإخوانه فى مصر وظمؤه إلى كل ما تحمله أرض مصر ، والقصيدة تقع فى أكثر من مائة بيت تحس وقدة نفسه فى ثنايا هذا الشعر البالغ الحساسية والحنين :

يا نائح (الطالح)[1] أشباه عوادينا	نشجى لواديك أم نأسى لوادينا ؟
ماذا تقص علينا غير أن يداً	قصت جناحك جالت فى حواشينا
رمى بنا البين أيكاً غير سامرنا	أخا الغريب وظلا غير نادينا

(١) الطلح داد بظاهر أشبيليه .

وإن يك الجنس يا بن (الطلح) فرقنا إن المصائب يجمعن المصابينا

ثم يمضي ليقول :

رسم وقفنا على رسم الوفاء له نجيش بالدمع والإجلال يثنينا
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم ولا مفارقهم إلا مصلينا[1]
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرم إلا إلى حرم كالخمر من (بابل) سارت لدارينا[2]
كادت عيون قوافينا تحركه وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا[3]
لكن مصر وإن أغضت على مقة عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفت تمائمنا وحول حافاتها بها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا وأربع أنست فيها أمانينا
بنّا فلم نخل من روح يراوحنا من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفلنا باسمه ذهبت فى اليم تلقينا[4]
ومصر كالكرم ذى الإحسان : فاكهة لحاضرين وأكواب لبادينا

---

(١) يقصد ملوك الأندلس .
(٢) بابل ودارينا : مدينتان اشتهرتا من قديم بجودة الخمر .
(٣) يقصد سلاطين وملوك الأندلس .
(٤) شبه مصر بأم موسى حين ألقته فى اليم صبيًّا وسألت الله أن يكفله .

الباب الخامس

شوق الإنسان فى وطنياته

يحلو للكثيرين من قراء الشعر ومتابعى آثار ناظميه ، أن يقيموا مقارنة بين وطنية الشاعرين شوقى وحافظ ، وهذا أمر إذا بدا فى ظاهره شيئاً ميسوراً إلا أن تناوله يتطلب التعمق والدراسة التى تتيح الحكم الصحيح ..

وكما سبق وذكرنا فى مطلع حديثنا ، أن غايتنا من هذه الدراسة ، تنصرف إلى الحديث عن شوقى الشاعر الإنسان ، ولكنى لا أرى بأساً ، تحقيقا لرغبة من ذكرت ، أن أسلك هذا المسلك فى شىء من الإيجاز .

عرفنا مما سردناه ، كيف أن عروق شوقى قد توزعت فى مختلف الأجناس التركية والشركسية واليونانية ، كما أن حافظ إبراهيم تتقاسمه جنسيتان ، فأبوه مصرى صميم ولد وعاش فى ديروط وقد أنجب حافظاً هنالك فى (ذهبية) ترسو إلى جانب النيل ، وقد اشتهر لقبه بشاعر النيل ، أما أمه فهى (هانم بنت أحمد البورصة لى) من أسرة تركية الأصل .

وليس مكان الولادة والانتماء إلى بلد بضرورة فى أن يكون هذا المنتمى وطنياً .

ولدينا فى حشايا التاريخ أمثلة عديدة نضربها للبرهان على ما ذكرنا ، فنابليون من أصل إيطالى فقد ولد فى بلدة أجاكسو بجزيرة كورسيكا الإيطالية التى احتلتها فرنسا بعد سنوات معدودة من مولد نابليون ، وهتلر كان نمساوياً ثم نزح إلى ألمانيا ، كما أن صلاح الدين الأيوبى كان كردياً عاش أبوه فترة فى سوريا ثم نزح به إلى مصر وعاش بها حتى ولى أمرها ، وكأن القدر قد أعده ليدفع عن مصر وغيرها من الشرق العربى شرور التتار والصليبيين .

كذلك كان الأمر بالنسبة لكاترين الأولى قيصرة روسيا ، فقد كانت ألمانية ، كما أن العائلة الإنجليزية المالكة من أصول ألمانية ومن هانوفر ومن العائلة الألمانية المالكة .

نخلص من هذا إلى أنه لا دخل فى مكان الميلاد ، أو الانتماء الأصلى لبلد من البلدان ، فى تكوين وطنية الشاعر أو وطنية أى إنسان . أما بالنسبة لوطنية شوقى ووطنية حافظ فى نظميهما ، فإن هناك أسباباً ودوافع تقرب بينهما حيناً وتباعد بينهما حيناً .

ذلك أن شوقى نشأ فى بيئة تركية أو أرستقراطية خالصة ، وتربى جدوده كما تربى هو فى القصور ، فأصبح الاعتزاز بهذا النسب والحسب ضرورة طبيعية أو ضريبة أدبية .

أما حافظ فقد نشأ فى بيئة نصفها مصرى أصيل من ناحية الأب ، ونصفها الآخر تركى متواضع من ناحية الأم التى كانت تنتمى من ناحية أبيها (البورصة لى) إلى أصل تركى ديموقراطى .

فإذا ما هم شوقى – وهذا ما كان يتهمه به شانئوه – بالدفاع عن تركيا

وسلطان تركيا وخلافة العثمانيين ، قالوا إنما هو يفاخر بحسبه ونسبه ، فى حين أنه كان يدافع عن الخلافة بوصفها نصيرة الإسلام ، وحامية حماه ، وأن فى إضعافها إضعاف للإسلام ، وهذا ماكان يجرى ، إلى جانب ماكان يأتيه السلاطين مما يطول الحديث حوله ولا يتطلبه الموقف .

أما حافظ وإن كان يشترك مع شوقى فى هذه المشاعر التى يمليها التمسك بعزة الإسلام والدفاع عن ركنه ، فإنك كنت تلمس وهو يتحدث عن الخلافة أنه يتحدث حديث الحادب عليها والمشفق من أن تضعف فيضعف الإسلام ، ولكن بحرارة لا وقدة فيها ، كتلك التى كانت تظهر وتبين عندما كان شوقى ينبرى للدفاع عنها فى بيان قوى ولسان فصيح علوى .

كذلك فإن شوقى يختلف عن حافظ فى وطنيته التى كانت بحكم تنقلاته ورحلاته ، تتعدى الحدود ، وتقف إلى جانب كل شعب مظلوم مقهور مغلوب على أمره ، فى حين ركز حافظ حماسه وثورته على مصر وشعب وادى النيل . ويلمس قارئوه فى وطنياته ناراً تتأجج وثورة تشتعل ، ولا عجب فى ذلك ، فقد اكتوى بنار المستعمر البريطانى الذى ما زال به حتى حمل الحاكمين على إعفائه من عمله كضابط فى الجيش ، أما شوقى فإن نفس المستعمر لم يلحقه إلا بأذى يسير ، حيث أمر بنفيه خارج مصر ، حيث اختار الأندلس مقاماً ، وهى جنة قال هو نفسه فيها :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

وفى هذا البيت وحده ، البرهان على تقديسه لوطنه مصر وتفانيه فى حبها .

وحافظ يقول فى مناسبة نجاة سعد زغلول من الاعتداء عليه :

الشعب يدعو الله يا زغلول أن يستقل على يديك النيل
أيموت (سعد) قبل أن نحيا به خطب على أبناء مصر جليل

ووطنيات حافظ عديدة ووفيرة ، تلمس فيها الوفاء الأصيل والحب الخالص فى ألفاظ بريئة كأنه الطفل الذى ينزع إلى حنان أبويه ، فى حين كان شوقى يبث فى وطنياته ، مع حرارة الوفاء ، الحكمة والنصح والتكريم ، كأب يحنو على ولده وفلذة كبده .

الشاعران فى إيجاز ، وطنيان صميمان ، والمقارنة بين نظميهما فى الوطنيات ، أشبه بالمقارنة بين حدى المقص .

فإذا قلت إن شوقى حسبه أن يقول :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

فكيف ننسى لحافظ قوله فى مصر وعلى لسانها :

وقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبنى قواعد المجد وحدى
أنا تاج العلاء فى مفرق الـ ـشرق ودراته قلائد عقدى
كم بغت دولة على وجارت ثم زالت وتلك عقبى التعدى
إننى حرة كسرت قيودى رغم رقبى العدا وقطعت قدى

* * *

تعالوا ننظر إلى شعر شوقى وهو يحلل به الأحداث الوطنية فى عام ١٩١٩ ثارت البلاد فى طلب استقلالها . وغادر مصر إلى باريس أعضاء من الوفد

المصرى ، لعرض قضية البلاد على مؤتمر السلام العام فى (فرساى) . وكان سعد قد تلقى وهو فى باريس دعوة من لورد (ملنر) وزير المستعمرات البريطانى ، ليتفق معه على مركز البلاد وتحديد علاقة إنجلترا بها . وانتهت المحادثات بينهما إلى مشروع قدمه لورد ملنر فاتفق سعد مع زملائه على ضرورة عرضه على البلاد ، وانتدب الوفد أربعة من أعضائه لهذه المهمة ، وتباينت الآراء حول المشروع مما حمل شوقى على أن ينظم فيه :

ما بال قومى اختلفوا بينهم	فى مدحة المشروع أو ثلبه
كـأنهم أسرى أحـاديثهـم	فى لين القيد وفى صلبه
يا قوم هذا زمن قد رمى	بالقيد واستكبر عن سحبه
من يخلع النير يعش برهة	فى أثر النير وفى ندبه

إلى أن يقول ناصحاً :

قد صارت الحال إلى جدها	وانتبه الغافل من لعبه
الليث والعالم من شرقه	فى هيبة الليث وفى غربه
قضى بأن نبنى على نابه	ملك بنينا وعلى خلبه
ونبلغ المجد على عينه	وندخل العصر إلى جنبه

* * *

وعندما قامت أحداث دنشواى فى عهد كرومر الذى حكم مصر كأنه السجان والحاكم بأمره ، حتى لقد قضت آثار مشانق دنشواى ، بنقله من مصر ، حيث قام شوقى بنظم قصيدة فى هذه المناسبة جاء فيها :

يا مالكاً رق الرقاب ببأسه هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا
لما رحلت عن البلاد تشهدت فكأنك الداء العياء رحيلا
أوسعتنا يوم الودائع إهانة أدب لعمرك لا يصيب مثيلا
أنذرتنا رقا يدوم وذلة تبقى وحالا لا ترى تحويلا
أحسبت أن الله دونك قدرة؟ لا يملك التغيير والتبديلا
فرعون قبلك كان أعظم سطوة وأعز بين العالمين قبيلا

* * *

وفى حنينه لمصر، عارض سينية البحترى :

صنت نفسى عما يدنس نفسى وترفعت عن ندى كل جبس[1]

بسينية شوقية تشى بشدة تعلقه ببلدة مصر واعتزازه بالانتساب إليها ووصف معانيها فى أبيات ذكر كثير من النقاد أنها تفوق سينية البحترى، برغم تواضعه فى تقديمها حيث يقول من نثره فى مقدمتها :

كنت كلما وقفت بحجر، أو أطفت بأثر، تمثلت بأبياتها : واسترحت من مواثل العبر إلى آياتها وأنشدت فيما بينى وبين نفسى :

وعظ البحترى إيوان كسرى وشفتنى القصور من عبد شمس

ثم جعلت أروض القول على هذا الروى، وأعالجه على هذا الوزن، حتى نظمت هذه القافية المهلهلة . وأتممت هذه الكلمة الربضة . وأنا أعرضها على القراء راجياً أن سيلحظونها بعين الرضاء، ويسحبون على عيونها ذيل الإغضاء .

(١) جبس : أى جنان .

اختلاف النهار والليل ينسى ... اذكرا لى الصبا وأيام أنسى
وصفا لى ملاوة[1] من شباب ... صورت من مصورات ومس
عصفت كالصبا اللعوب ومرت ... سنة حلوة ولذة خلس
وسلا مصر ، هل سلا القلب عنها ... أو أسا جرحه الزمان المؤسى
أحرام على بلابله الدوح ... حلال للطير من كل جنس
شهد الله لم يغب عن جفونى ... شخصه ساعة ولم يخل حسى

إلى أن يقول متشوقاً :

وكأن الأهرام ميزان فرعون ... بيوم على الجبابر نحس
روعة فى الضحى ملاعب جن ... حين يغشى الدجى حماها ويغسى
و (رهين الرمال)[2] أفطس إلا ... أنه صنع جنة غير فطس
تتجلى حقيقة الناس فيه ... سبُع الخلق فى أسارير أنسى
لعب الدهر فى ثراه صبياً ... والليالى كواعباً غير عنس
فأصابت به الممالك (كسرى) ... و (هرقلا) و (العبقرى الفرنسى)
يا فؤادى لكل أمر قرار ... فيه يبدو وينجلى بعد لبس

* * *

ومن الحنين نسمعه يقول :

سويجع[3] النيل رفقاً بالسويداء ... فما تطيق أنين المفرد النائى

(١) ملاوة : بمعنى البرهة .
(٢) ورهين الرمال : يعنى أبو الهول .
(٣) سويجع : تصغير ساجع .

لله واد كما يهوى الهوى عجب   تركت كل خلى فيه ذا داء

وأنت فى الأسر تشكو ما تكابده   لصخرة من بنى الأعجام صماء

أمسى وأصبح فى نجواك فى كلف   حتّى ليعشق نطقى فيك إصغائى

مؤيداً بك فى حلى ومرتحلى   وما هما غير إصباحى وإمسائى

* * *

الباب السادس

إنسانية شوقى تتغلغل فى كل ما يقع عليه بصره أو يعتز به

كان شوقى أمير الشعراء ، سيداً فى كل مكان يجلس فيه أو يغشاه . برغم ذلك ، رغم هذه الهالة من العظمة التى انحدرت إليه من أصل أثيل ونسب أصيل ، وإحاطة شعره فى كل باب وفن ، وما جدد فيه مما لم يسبقه إليه سابق ، رغم كل ذلك فلم يكن فى جيله من أبناء عصره من هو أبعد من الزهو ولا أقرب إلى التواضع منه ، حتى إن جليسه ليشعر مهما قل من شأنه وضؤل خطره — أنه صنوه ونظيره فى القدر والمنزلة ، وذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء .

وأغلب الظن أن هذه الصفات مردها جميعاً إلى علمه العميق الشامل بحقيقة الدنيا والدهر والناس وضآلة كل هذه المظاهر التى مآلها جميعاً إلى التراب وهو يقول مخاطباً توت عنخ آمون :

أنزلت حفرة هالك ... أم حجرة الملك المكين
أم فى مكان بين ذ ... لك يدهش المتأملين ؟

هو من قبور المتلفيـ ـن ومن قصور المترفين
لم يبق غال فى الحضا رة لم يحزه ولا ثمين
ميت تحيط به الحيا ة زمانه معه دفين
وذخـائـر مـن أعصر ولت ومن دنيا ودين
حملت على العجب الزما ن وأهله المستكبرين

وكان من أثر هذه العظمة النفسية ، تلك الأوصاف البارعة اللفظ والمعنى لكل ما يقع عليه بصره . وهو يعتد به لأنه من صنع أهل بلده ومن عجائب الدنيا فى عصر تناقصت فيه العجائب ، ومرد ذلك أيضًا إلى أن إحساسه الوطنى لم يكن إحساس فرد يشعر بعظمة أمة ذات ملايين ، هو مجرد واحد منها ، وله نصيب ضئيل من انعكاس هذه العظمة على أهل بلدها ، بل كان شعوره بعظمة بلده قد أوحى إليه أنه موكل بأن يملأ بالإشادة بتلك العظمة أذن الزمان وسمع الدهر ، ليمشى مزدهياً به فى كل مكان ، وتلك مرتبة فى الشعور الوطنى والاعتزاز بأمجاد بلده ، قلما يرقى إليها إلا مشاعر زعماء الوطنية الذين تدفعهم عظمة بلدهم إلى أن يندفعوا فى الارتقاء بهذا الوطن والدفاع عن حياضه والفناء من أجله إن دعا داعى الوطن .

وهو إلى جانب الاعتزاز والاعتداد بوطنه ، كان شديد الحب للفن ، والولوع به مرسوماً أو منحوتاً أو منقوشاً أو مقروءًا أو مسموعاً فى غناء أو نشيد أو ترتيل ، كلفاً بتعرف دقائق كل هذه الفنون ، وهى التى أعانته فى التعمق إلى أغوار ما يصف مما يقع عليه بصره أو يصل إلى أذنه من حديث أو غناء كل هذه

العظائم التى أحاطت بشوقى ، كان من شأنها أن تدير رءوس بعض ضعاف النفوس ، إلا أن شوقى كان دائم الإغضاء عما يفد عن خلق صديقه فى ثورة الغضب ، أو إفراط الدالة ، أو بادرة الهفوة ، باسطاً له العذر ، مغضياً عن الصغائر ، حتى ليحس صديقه أنه لم يأت ما يقتضى العتاب عليه .

وكان ألد خصومه كذلك ، فى أمن من كيده ، عجزاً عن ذلك ، بل محافظة وقدرة منه على ما يقتضيه شرف الخصومة وقواعد الأدب فيما جل وهان .

وكأنما قد ركبت فى بصره (أشعة ليزر) التى تكشف عن أقصى أغوار ما يختفى تحت باطن الأرض أو داخل جدار سميك حصين ، وبهذه الموهبة التى حباها به الله فوق ما حباه من الفكر المصقول واللفظ المتميز ، كان شوقى إذا وصف أو اعتز أو تباهى ، ينثر الدر المنظوم فى شعر جزل ، عميق المعنى ، رقيق العبارة موسيقى الجرس .

* * *

نحن الآن نريد أن نؤيد من خلال شعر شوقى ما سبق أن أوردناه فيما سلف ونمعن الفكر فيما يصل إليه فكره وبصيرته عندما يتغنى فى قصيدة (توت عنخ آمون) بمجد الأولين ومجد بلده العزيز المكين . فهو عندما يبدأها بمخاطبة (ليوشع) فى قوله : « قفى يا أخت يوشع خبرينا » ، إنما يذكر قصة غابرة ليوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام ، واستيقافه الشمس .

لقد رُوِىَ أن يوشع قاتل الجبارين يوم الجمعة ، فلما أدبرت الشمس للغروب ، خاف أن تغيب قبل فراغه منهم ، ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم

فيه ، فدعا الله تعالى ، فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم .

يقول شوقى :

قفى يا أخت (يوشع) خبرينا   أحاديث القرون الغابرينا
وقصى من مصارعهم علينا   ومن دولاتهم ما تعلمينا

ثم يمضى ليصف عواهل وملوك ذلك الزمن :

فكانوا الشهب حين الأرض ليل   وحين الناس جد مضللينا
مشت بمسارهم فى الأرض (روما)   ومن أنوارهم قبست (أثينا)
ملوك الدهر بالوادى أقاموا   على (وادى الملوك) محجبينا
فرب مصفد منهم وكانت   تساق له الملوك مصفدينا
إذا عمدوا لمأثرة أعدوا   لها الإتقان والخلق المتينا
وسر العبقرية حين يسرى   فينتظم الصنائع والفنونا
وآثار الرجال إذا تناهت   إلى التاريخ خير الحاكمينا
وكان العز حليته وكانت   قوائمه الكتائب والسفينا
وتاج من فرائده (ابن سيتى)   ومن خرزاته (خوفو) و (مينا)

وكان رمسيس يكنى بابن سيتى أما رمسيس فهو رمسيس الثانى المعروف بسوزستريس ، ويلقب عندما يرد ذكره بالأكبر ، لأنه كان أعظم ملوك مصر سلطة وقوة . وطالت مدة حكمه وكثرت فيها الآثار القديمة والعمائر المشهورة التى حملت اسمه ورسمه .

وينتقل كما ينتقل الطائر الغريد بين أطلال يصفها بالعظمة ، ويضفى عليها من عظمة شعره ما يكسبها الجلال والخلود .

نحن الآن عند (توت عنخ آمون) فنرى شوقى أمام هذه العظمة عظيماً عالى القدر ، بديع الوصف ، عميق المعرفة بكل ما يدق على الأفهام :

خليلى اهبطا الوادى وميلا	إلى غرف الشموس الغابرينا
وسيرا فى محاجرهم رويداً	وطوفا بالمضاجع خاشعينا
وخصا بالعمار وبالتحايا	رفات المجد من (توتنخمينا)
وقبراً كاد من حسن وطيب	يضىء حجارة ويضوع طينا
يخال لروعة التاريخ قُدت	جنادله العلا من (طورسينا)
وكان نزيله بالملك يدعى	فصار يلقب الكنز الثمينا
وقوماً هاتفين به ولكن	كما كان الأوائل يهتفونا
فثم جلالة قرت ورامت	على مر القرون الأربعينا
جلال الملك أيام وتمضى	ولا يمضى جلال الخالدينا

ولم يفته وهو الشاعر اللبق اللماح بعد أن طار بهذا الفرعون إلى أعلى الذرى وأسكنه أطيب الجنات بالمديح والثناء ، لم يفته أن يذكر بالبعث والنشور ، فقد تغلبت إنسانية شوقى على افتخاره بآثار بلده وفراعينها ، فمضى يقول :

سللت من الحفائر قبل يوم	ينسل من التراب الهامدينا
فإن تك عند بعث فيه شك	فإن وراءه البعث اليقينا

ولو لم يعصموك لكان خيراً كفى بالموت معتصماً حصينا
يُضَرُّ أخو الحياة وليس شيء بضائره إذا صحب المنونا
زمان الفرد يا (فرعون) ولى ودالت دولـة المتجبرينـا
وأصبحت الرعاة بكل أرض على حكم الرعية نازلينا

وكثيراً ، ما كان يشيد شوقى بالشورى وبالبرلمان بسبب تقديسه لحرية الرأى .
وإنه فى إحدى قصائده يقول بمناسبة افتتاح أول برلمان فى مصر وكان يوافق افتتاحه يوم السبت الموافق ١٥ مارس ١٩٢٤ :

مصر إذا ما راجعت أيامها لم تلق للسبت العظيم مثيلا
(البرلمان) غدا يمد رواقه ظلا على الوادى السعيد ظليلا

* * *

لعل من أروع ما نظم شوقى ، على روعة كل ما نظم ، نظمه فى نهر النيل كان قد انعقد فى (أثينا) باليونان مؤتمر للمستشرقين فى أوائل العشرينات . ولم يستطع شوقى أن يلبى الدعوة إليه . وكان يخص الأستاذ (مرجليوث) مدرس اللغة العربية فى جامعة أكسفورد بود وتقدير وعرفان . فأرسل إليه قصيدة النيل لتلقى نيابة عنه فى المؤتمر وقد أرفقها بكتاب إليه جاء فيه :

« الشعر كالأحلام ، تدخل على المسرور الكرى ، وتكثر على المحزون فى السرى وقريحة الشاعر كعين صاحب الأيام . عندها للحزن عبرة ، وللسرور عبرة . وهذه أيها الأستاذ الكريم كلمة ، نظمتها تغنياً بمحاسن الماضى وتقييداً لمآثر الآباء . وقضاءً لحق (النيل) الأسعد الأمجد وأبعثها إليك عرفاناً لفضلك على

لغة العرب وما أنفقت من شباب وكهولة فى إحياء علومها ونشر آدابها وإلقائها كلما طلعت الشمس خلف الضباب دروساً نافعة على أنبل شباب العصر ، فى أعظم جامعات العالم» :

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كف فى المدائن تغدق
ومن السماء نزلت أم فجرت من ... عليا الجنان جداولا تترقرق

ثم يمضى ليصف لون مائه الذى يصبغه الطمى ليقول :

وبأى نول أنت ناسج بردة ... للضفتين جديدها لا يخلق
تسود ديباجاً إذا فارقتها ... فإذا حضرت اخضوضر الإستبرق
فى كل آونة تبدل صبغة ... عجباً وأنت الصابغ المتأنق
تسقى وتطعم لا إناؤك ضائق ... بالواردين ولا خوانك ينفسق
والماء تسكبه فيسبل عسجداً ... والأرض تغرقها فيحيا المغرق
يتقبل الوادى الحياة كريمة ... من راحتيك عميمة تتدفق
أصل الحضارة فى صعيدك ثابت ... ونباتها حسن عليك مخلق
وُلدت فكنت المهد ثم ترعرعت ... فأظلها منك الحفى المشفق
ملأت ديارك حكمة ، مأثورها ... فى الصخر والبردى الكريم منبق[1]
وبنت بيوت العلم باذخة الذرى ... يسعى لهن مغرب ومشرق

(١) منبق : أى مصطف .

إننا نرى شوقى أمام هذه القصيدة العصماء ، التى تعز على السابقين واللاحقين ، وكأنه يقف أمام عاهل عظيم وملك مظفر ، يحوطه الجلال ، ويتيه بعزه وقوته وثراه ، ينشد هذه القصيدة الجليلة التى تربى أبياتها على المائة والخمسين بيتاً ، كأنما النيل وهو يسرى بين شاطئيه جذلان وفرحاً ، تهتز جوانبه ويترقرق مرسلاً أحلى الخرير ، ليتجاوب مع هذا المديح العلوى فى رفعته والفريد فى صنعته والإنسانى فى ثنائه وتقديره .

* * *

الباب السابع

شوقى الشاعر الإنسان فى وصفه ومدائحه ومراثيه

الشعر الإنسانى فى كل ما نظمه شوقى الشاعر الإنسان ، كان ينساب كالجدول والنهر النمير ، يطرب سامعه ويثير إعجابه بما تضمنته منظوماته فى كل مناسبة ينظم فيها ويبعث فى كائنات ما يصف الحياة وكأنما هى مخلوقات حية تحس وتتألم ، وسبق لنا أن دللنا على ذلك بأمثلة عديدة من شعره .

وحيثما وقع نظرك على نظم له . استوقفك منظر أو قصة أو حوار . تسرى فى جنباته الإنسانية المفعمة بالحب والخير ونشدان الكمال .

تعالوا ننظر إلى هذه القصيدة التى تشبه الأرجوزة فى الرفق بالحيوان :

الحيوان خلق   له عليك حق
سخره الله لكا   وللعباد قبلكا
حمولة الأثقال   ومرضع الأطفال
ومطعم الجماعة   وخادم الزراعة
من حقه أن يرفقا   به وألا يرهقا

إن كل دعه يسترح وداده إذا جرح
ولا يجع فى داركا أو يظم فى جواركا
بهيمة مسكين يشكو فلا يبين
لسانه مقطوع وماله دموع

ويقول محييا غاندى فى جهاده من أجل استقلال بلاده ، وكان غاندى فى هذا الجهاد يحيى مصر فى جهادها من أجل استعمار اكتوى هو وشعبه بناره :

سلام النيل يا غاندى وهذا الزهر من عندى
وإجلال من الأهـ ـرام والكرنك والبردى
ومن مشيخة الـ ـوادى ومن أشباله المرد
سلام حالب الشاة سلام غازل البرد
ومن صد عن الملح ولم يقبل على الشهد
ومن يركب ساقيه من الهند إلى السند
سلام كلما صليت عرياناً وفى اللبد
وفى زاوية السجن وفى سلسلة القيد

* * *

ولعل من أرق ومن أعمق ما رثى به ابن كشوقى أباه المرحوم على بك شوقى هذا الرثاء الفلسفى العميق :

سألونى لِمَ لَمْ أرث أبى ؟ ورثاء الأب دين أى دين

أيها اللوام ما أظلمكم · أين لى العقل الذى يسعد أين
يا أبى ما أنت فى ذا أول · كل نفس للمنايا فرض عين
هلكت قبلك ناس وقرى · ونعى الناعون خير الثقلين
غاية المرء وإن طال المدى · آخذ يأخذه بالأصغرين
وطبيب يتولى عاجزا · نافضًا من طبه خفى حنين

ثم يمضى ليقول فى فلسفة حزينة عميقة :

أنا من مات ومن مات أنا · لقى الموت كلانا مرتين
نحن كنا مهجة فى بدن · ثم صرنا مهجة فى بدنين
ثم عدنا مهجة فى بدن · ثم نلقى جثة فى كفنين
ثم نحيى فى (على) بعدنا · وبه نبعث أولى البعثتين
انظر الكون وقل فى وصفه · كل هذا أصله من أبوين

* * *

ولقد تعرض المتنبى لنقاد زمانه مثلما تعرض شوقى لناقدى شعره الذى حوى الكثير من المدائح والتهانى والمراثى . ومن عجب أن نجد المتنبى وهو الشاعر العربى الأثير لدى شوقى ، يشترك معه فى تلقى سهام الناقدين . وكان الأمر بين الشاعرين فى المديح يختلف ، وكذلك فى التهانى والمراثى . فقد كانت الصناعة الشعرية فى عهد المتنبى ، والحاجة لمطالب العيش ، كانت تدفعه إلى سلوك هذا المسلك . أما شوقى الذى عاش فى رغد ونعيم وعلو شأن ، فقد كان وفاؤه لإخوانه وأحبابه ورقة مشاعره هى التى لم تقعد به يوماً عن أن يهنئ أو يمتدح أو يرثى كلما وقع

حادث من هذه الأحداث . بل إن سكوته هو الذى يعاب عليه . إن هو سكت أو توانى . كما قال عندما رثى أباه بعد أن توانى ولحقه من ذلك اللوم .

وحدث للمتنبى وهو آنذاك شاعر سيف الدولة أمير ولاية حلب ، أن تلقى نبأ وفاة رضيع صغير لسيف الدولة ، فلم يكن منه إلا أن ساوى بين الفطيم والعظيم فى موقف الموت ورثاه بقوله :

فإن تك فى قبر فإنك فى الحشا … وإن كنت طفلاً فالأسى ليس بالطفل
أيفطمه (التوراب[1]) قبل فطامه … ويأكله قبل البلوغ . إلى الأكل

هذا الرثاء لفطيم فقده أبوه ، وله من قبله فتيان وصبايا ، غير أن المتنبى لم يفرق بين كبير وصغير ، لأن الأسى لا يدرك هذه الفوارق ، فهو إن وقع ، فقد أصاب القلب بالهم والعين بالدمع .

* * *

وعندما أقيم احتفال مهيب لتمثال نهضة مصر ، انبرى شوقى فى هذا الحدث ليقول قولا رنَّ فى سمع الزمان ، وامتلأ بالفخار والحكمة والشعر الرصين .

وهو فى هذا لا يمدح محمود مختار صانع التمثال وإنما يعود بالذكرى لمجد مصر الخالدة ، فماذا كان يطمع فى نيله من مختار ؟ إنه شاعر كل حدث جليل . قال فى هذه المناسبة التى لا ندرى كيف يلام من قالها على أنه شاعر

(١) التوراب لغة فى التراب . وهو يعنى أن التراب يفطمه قبل أن يحين موعد فطامه . ثم يأكله قبل أن يتعلم كيف يأكل . هذا رثاء يحمل كل هذه الحكمة البالغة واللفظ البليغ .

للمناسبات والذكريات ، وماذا فى الحياة سوى ماضٍ دابر ، ويوم حاضر . وغد مرتقب .

جعلت حلاها وتمثالها عيون القوافى وأمثالها
وأرسلتها فى سماء الخيال تجر على النجم أذيالها
وإنى لغريد هذى البطاح تغذى جناها وسلسالها
ترى مصر كعبة أشعاره وكـل معـلـقـة قالها

ثم يمضى بعد أن يخطر من لم يكن يعلم أنه شاعر هذا الوطن وترجمان صدق فى كل ما يحيط به من نحوس أو سعود :

لقد بعث الله عهد الفنون وأخـرجت الأرض مـثـالها
تعالوا نرى كيف سوى الصفاة فـتـاة تـلـمـلـم سربـالها
دنت من أبى الهول مشى الرءوم إلى مقعد هاج بلبالها
وقد جاب فى سكرات الكرى عـروض الـلـيـالى وأطوالها
وألقى على الرمل أرواقه وأرسى على الأرض أثقالها
فهل سكبت فى تجاليده شـعـاع الحيـاة وسيـالها
أتذكر إذ غضبت كاللباة ولمت من الغيل أشبالها
وألقت بهم فى غمار الخطوب فخاضوا الخطوب وأهوالها
وثاروا فجن جنون الرياح وزلـزلت الأرض زلـزالها
ومن ذا رأى غابة كافحت فردت من الأسر رئبالها
وأهيب ماكان بأس الشعوب إذا سلح الحق أعزالها

إن قارئ هذه القصيدة ، يحس كما لو كان ناظمها يحمل سيفاً ، ويلوح به مفتخرًا مختالاً بأمته التى خاضت الخطوب والأهوال وثارت على القسر والقهر ، وكأنها الريح قد ثارت فى جنون ، وكأنها الأرض قد غشيها زلزال ، حتى تم لها ما ثارت من أجله ، مهما بدا من خلو يدها من السلاح ، فقد سلحها الحق بما هو أقسى وأمضى من كل سلاح .

والحديث يطول فى وصف أو مراثى شوقى . وإن كان قد سبق أن ذكرنا طرفاً من مراثيه فى الندوة الأولى ، فإن العودة فى هذه الندوة إلى ذكر بعض المراثى أو الوصف ، إنما مردها إلى ما احتواه الجديد من فلسفة ومعرفة بالحياة وإدراك لحبائلها وخداعها .

* * *

الباب الثامن

إنسانية شوقى الفنان فى مسرحياته وغنائياته

إن السعى إلى التدليل على ما فى شعر شوقى من جمال وإنسانية ، ليس فى حاجة إلى مجهود ، ولكن الأمر الشاق ، هو أنك لا تستطيع أن تهدئ من نبض حواسك ، لوفرة وكثرة ما يستوقفك من هذا الجمال .

ولعل الشعر قد تميز عن باقى الفنون ، بأن الجمال فيه ، متنوع الصور ، عسير على التحليل الواضح ، عصى على النفوذ إلى حناياه وثناياه بصورة متيسرة فى باقى الفنون .

ولم يترك شوقى باباً من أبواب النظم إلا طرقه وأجاد فيه بنفس الجودة التى يلقاها قارئه فيما سبق له أن قرأه من نظمه فى أبواب الشعر المعروفة . من وصف إلى فخر إلى حكمة إلى فلسفة إلى تهنئة إلى مدحة إلى رثاء . لم يكتف شوقى بهذا بل إنه كتب للأطفال شعرًا مبسطاً ، فيه الحكمة تجاوز الهزل والبساطة والإنسانية .

نورد من ذلك قصيدة الثعلب وأم الذئب التى يقول فيها :

كان ذئب يتغذى فجرت فى الزور عظمه

ألزمته الصوم حتى فحعت فى الروح جسمه
فأتى الثعلب يبكى ويعزى فيه أمه
قال يا أم صديقى بى مما بك غمه
فاصبرى صبراً جميلاً إن صبر الأم رحمه
فأجابت : يا بن أختى كل ما قد قلت حكمه
ما بى الغالى ولكن قولهم مات بعظمه
ليته مثل أخيه مات محسوداً بتخمة

* * *

ولا نزعم أن شوقى أضاف إلى قيثارة الشعر المشجية . وترًا جديدًا فى الشعر العربى ، هو المسرح الشعرى الغنائى ، ولكنه اختار خامة هذا الوتر ، وأجاد استخدامه إجادة تملك على النفس أمرها ، وتحرك أشجان القلب الخالى والشجى على حد سواء . من فرط ثراء هذا الإيقاع المبدع الرنان . والجرس البديع الأغن . والموسيقى التى تنساب فى اللفظ قبل اللحن .

لقد سبق شوقى إلى تقديم المسرحية الغنائية الشعرية ، بعض شعراء منحصرين ، كان شعر مسرحياتهم لا هم له ولا غاية منه إلا أن يكون قاعدة يقيم عليها الملحن ما يشاء من لحن ويكسوها الثوب الذى يترجم عن المعنى بصورة بدائية التصوير ، ساذجة المعانى .

استمع إلى بيتين من المسرحية الشعرية المنظومة عن روميو وجولييت

أجولييت ما هذا السكوت ولم أكن لأعهد فيك الصمت عنى فى قربى

سلام على حسن يد الموت لم تكن لتمحوه إذ تمحو هواه من القلب

وكان الشيخ سلامة حجازى هو الذى يقوم بالتمثيل فى هذه المسرحية التى كان يغنيها ، واسمها مصارع العشاق ، وقد كان الشيخ سلامة آنذاك هو نجم المسارح الغنائية التى غنى فيها روايات : الناصر صلاح الدين ، والأفريقية ، وروميو وجولييت ، وكانت ألمع سنواته على المسرح تلك الفترة التى تقع بين عام ١٩١٢ حتى عام ١٩١٨ ، ثم بدأ المرض بعدها يزحف إليه حتى أقعده ، تماماً عن التمثيل والغناء .

وكانت هناك فى تلك الآونة مسارح أخرى كانت مادة أدائها مشابهة . وهى مسرح منيرة المهدية ، ومسرح إخوان عكاشة . وكانت بعض مسرحيات وأوبريتات هذه الفرق تؤدى باللغة العامية التى كان يكتبها بيرم التونسى وبديع خيرى وأمين صدقى ويونس القاضى ، إلى جانب مسارح استعراضية للغناء الفرانكو آراب مثل مسرح الريحانى وعلى الكسار والكورسال وكازينو دى بارى .

وعندما دخل محمد تيمور حلبة المسرح ومعه بيرم التونسى وعباس علام انتعشت النهضة المسرحية ووجدت من الملحنين أمثال سيد درويش وداود حسنى وزكريا أحمد وكامل الخلعى ، معواناً على أداء رسالة المسرح بأقصى إمكانياتهم ، فقد قدم سيد درويش روايات العشرة الطيبة والباروكة وشهرزاد ، وقدم زكريا أحمد وكامل الخلعى وداود حسنى روايات عزيزة ويونس ويوم القيامة وعلى بابا . ثم جاءت ملك الفنانة التى كانت خير أوبراتها (مايسة) فى آخر المطاف .

كان لابد من هذه المقدمة عن المسرح الغنائى الشعرى فى مصر ، حتى نربط بينه وبين ما قام به أحمد شوقى من جهد وما ساهم به من عمل مجيد وضعه فى مصاف كتاب المسرحيات الشعرية الدرامية منها والغنائية . فقد قدم للمسرح روايات على بك الكبير ، وقمبيز ، والست هدى وغيرها ، ثم اتجه إلى المسرح الغنائى .

ويشاء القدر البسام ، أن يضع الأستاذ عبد الوهاب ، أمير الشعراء أحمد شوقى ، الذى استمع إلى عبد الوهاب فى مناسبة عابرة ، فأطربه صوته وأعجب بأدائه وذوقه وخبرته التى تنم عما بذل فى سبيلها من كد ومعاناة ، والتى لم يكشف عنها إلا بعد اطمئنانه إلى خاماتها ونسيجها المتماسك .

وكان شوقى يقدم لعبد الوهاب الأغانى باللغة الدارجة حيناً ، وباللغة الفصحى أحياناً فى شعر يتيه به على الزمان ، ثم راح يقدمه إلى الخاصة من أهل ذلك الزمان ، وكانت تجربة لعبد الوهاب ، كانت ترمى إلى معرفة أثر فنه المعروض على قوم كانوا ينصرفون عن كل ما هو شعبى أو شرقى أو وطنى ، لكنه استطاع بغنائه ولون تلحينه البارع الطريف ، أن يزعزع ما كانوا يتمسكون به وراحوا يستمعون إليه فى شغف واستحسان .

وقد نظم شوقى لعبد الوهاب ثروة فى عالم الغناء والشعر ، فذكر منها على سبيل المثال : بلبل حيران ، فى الليل لما خلى ، الليل بدموعه جانى ، اللى يحب الجمال ، علموه كيف يجفو فجفا ، يا ناعماً رقدت جفونه ، قولوا له روحى فداه ، ثم يا جارة الوادى التى نذكر فيما يلى قصتها .

كان أحمد شوقى ، يؤثر مصايف لبنان على مصايف أوربا لاستقرار الجو فيها

والجمال مناظرها ولوجوده فى بيئة شرقية عربية ، يطيب له مناخها .

وهو القائل فى لبنان :

لبنان والخلد اختراع الله لم يرسم بأزين منهما ملكوته
هو ذروة فى الحسن غير مردمة وذرا البراعة والحجا بيروته

وكان مصيف زحلة ، دون سائر مصايف الجبل ، مستأثراً بحب وإعجاب وحنين أمير الشعراء .

وقد رأت بلدية زحلة عام ١٩٢٧ أن تهديه قطعة أرض يقيم عليها داراً لسكناه ، تطل على نهر (البردونى) ، الذى يشق زحلة مختالاً بين رياضها ومجانيها ، إلى أن يصبح عند قدميها جدولا ، عذب الخرير ، شجى النغم ، تنتشر على جوانبه المرحة اللعوب ، منتديات ومسارح ومطاعم ، لا تقع العين فيها إلا على ضاحك أو شارب أو طاعم أو راقص أو عازف أو شاد . وقد قامت على مشارف وادى زحلة ، عن يمين وعن يسار ، هضبتا صنين والحرمون ، يضمان زحلة فى حب ورفق وحنان ، حرصاً عليها واعتزازًا بها مثلما يعتز أب بابنة حسناء غالية .

وقد رأى أمير الشعراء ، إعراباً منه على شكره على لفتة بلدية زحلة ، إلى أن يخلد هذا الحادث بشعره الذى يرن فى أذن الزمان ، وأن يقوم الموسيقار عبد الوهاب بتلحينه ، ليكتب لهذه القصيدة الخلود ، مثلما كتب الخلود لأغنية قبلها منذ أكثر من مائتى عام فى بلدة (أڤينيون) فى فرنسا ، وهى التى كانت فى فترة من الفترات مركزاً للبابوية . واسم هذه الأغنية :
Sur Le I-ont a'ervinion

(فوق كوبرى أفينيون) . ما تزال هذه الأغنية يتغنى بها الشبان والصبايا حتى وقتنا الحالى .

وقد صح ما توقعه أمير الشعراء لأغنية (يا جارة الوادى) فما أن شدا بها عبد الوهاب ، وطبعت على أسطوانات فى عهدها ثم على كاستات فيما بعد ذلك ، حتى أصبحت القصيدة على لسان كل عربى وخاصة أهالى زحلة

وقد أسمى أمير الشعراء القصيدة (آية الزمان) . وكان مطلعها :

شيعت أحلامى بقلب باك ولمحت من طرق الملاح شباكى

ثم تجىء الأبيات التى لحنها عبد الوهاب :

يا جارة الوادى طربت وعادنى ما يشبه الأحلام من ذكراك

ويقول فى ختامها وهى أبيات لم تغن ولكنه يعبر فيها عن امتنانه لبلدية زحلة ، كما يفصح فيها عن قدر زحلة فى قلبه :

إن تكرمى يا زحل شعرى إننى أنكرت كل قصيدة إلاك
أنت الخيال بديعه وغريبه الله صاغك والزمان رواك

* * *

واستكمالا للحديث عن شعر شوقى الشاعر الإنسان ، والتنقل فى بستان نظمه ، والتنعم بجمال ما به من ورود وأزهار ، تبعث الأرج والشذى الذى يعطر الأرجاء وينعش النفوس الغافلة الهيمانة ، أقول استكمالاً لكل ذلك ، أى أن

أطوف بطرف من عادات هذا الإنسان ، الفريد فى تكوينه والمعجز فى نظمه وبيانه .

كان شوقى لا يرى صيفًا أو شتاءً إلا مكتسياً بدلته كاملة بصديرها . وكان لا يستعمل (الكرافات) أبداً ، ويستبدله (بالبابيون) الجاهز الربطة ، حتى لا يحتاج إلى أن يقوم بالتأكد من وجوده فى مكانه الصحيح وهذه مهمة كانت تضايق مزاجه الرقيق .

وكان شوقى رحمه الله ، قليل الأصدقاء ، كثير المعارف ، وهو ينتقى أصدقاءه مثلما ينتقى الصائغ الماهر بديع الجواهر التى يستكمل بها صنعته ، وما بين يديه من تحفة غالية .

وقديما قال شاعر :

وما الخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت فى عين من لم يجرب

وكان لا يرتاح إلا لصحبة محدودة العدد ، خفيفة الظل ، رفيعة الذوق ، يأنس لها ويستطيب وجوده بينها ، وإن كان هو معهم ، الحاضر الغائب.من هؤلاء المقربين إليه ، المرحومين محمد البابلى والدكتور محجوب ثابت والشيخ طهارة الذى كان إماماً للسفارة المصرية فى واشنجتون آنذاك ، وحسين شيرين بك والأستاذ محمد الجزيرى ، وقليل غيرهم ممن لم تعهم الذاكرة ، ومن الأحياء ، أطال الله بقاءهم الأستاذين أحمد رامى ومحمد عبد الوهاب .

وكان يرتاد الأماكن التى اعتاد ارتيادها ، دون ما نظر إلى من يرتادها ، فهو

محب للمكان ، غير آبه بالسكان الذين كان يجلس معهم وهو عنهم فى شأن شعره وأوبراته وغنائياته .

وكان لا ينام إلا فى ضوء شمعة أو (مسرجة) . ولا يطيق نور الكهرباء . وكان كثيراً ما يركب الترام المفتوح الجوانب وفى آخر مقاعد العربة الأخيرة . أما فى السينما فكان يجلس فى الصف الأول من الصالة بسبب ضعف إبصاره .

وعندما كان يعود من سهرته ليلاً إلى (كرمة ابن هانئ) فى المطرية ثم فى الجيزة ، كان يجد خادمه الخاص ، (الشماشرجى) فى انتظاره ليقدم له عشاءً خفيفاً . ثم يتركه ليقرأ أو يستكمل نظم قصيدة أو مسرحية أو أوبريت ، أو أغنية .

ومما هو مأثور عن بيرم التونسى أن أمير الشعراء عندما دخل عالم الأغنية ، خاف بيرم التونسى هذا الفارس الذى لا يجارى ، وأنه سيسود على ناظمى هذا اللون ، فقال يخاطبه بقوله :

يا أمير الشعر غيرك   فى الزجل يبقى أميرك

أما شوقى الرقيق ، الإنسان ، فقد كان يقول عن نظم بيرم لأزجاله وأغانيه باللغة الدارجة .

إنى أخاف على اللغة العربية من عامية بيرم البليغة .

يتوقف المحاضر قليلاً ليقول وهو يستعد للانصراف :

أشكر لكم حسن إصغائكم ، تصفيق من الحضور وهم يهمون بالانصراف .

المحتويات

هذا الكتاب

يطوف المؤلف خلال عالم شوقى الشعرى .. فيأخذ الجانب الإنسانى من هذا العالم .. ويعرض لشوامخه الدينية ومواكبته أحداث عصره ، وقصائده فى الوصف والوطنية ومسرحياته وغنائياته .

والمؤلف يؤكد فى كل ما يكتب إنسانية أحمد شوقى فى تناوله كلّ ما يعبر عنه فى أشعاره المختلفة .. فأضاف بذلك حسًّا خاصًّا إلى مقدرة شوقى الفنية ..

